

أيام الهكسوس

لم تكد الأيام تنتهى بالأسرة الثالثة عشرة الى أواخر حياتها ، حتى أصبحت الأمور في حال من الفوضى ، أقل ما يقال فيها انها جرت البلاد الى ثورات متتابة وحروب أهلية مختلفة • وكأما شاعت الايام أن تمتحن مصر من وراء ذلك بضرباتها القاسية ، جزاء ما قدم زعماءها من أسباب الخلاف بين يدى الأيام •

وهكذا منطلق الزمن وقضاؤه في مصير الأمم حين يقع الخلاف بين زعمائها، وحينما تملؤهم شهوة الحكم فتعمى قلوبهم وأبصارهم عن الحق والواقع، وتصرفهم عن كل خير ، وتدفع بهم في سبيل الضلال ، وتسوقهم الى الهاوية • تاركين من ورائهم شعوبا بريئة ، لتنهشها ذئاب الاستعمار في شراهة وعنف ، وتنصب عليها أسواطه في غير رحمة • فالويل الويل للأمة يوم يركب شيطان الحكم منها رؤوس القادة والزعماء ، ثم يسكن في قلوبهم ، ويوسوس في صدورهم بتلك الأطماع التي تنشر بينهم أسباب الخلاف وتذيع بينهم العداوة والبغضاء ، ثم تدفعهم الى المكروه وتسوق الشعب من وراء ذلك الى ما ينتظره من سوء المصير •

وقعت مصر على أثر الخلاف بين زعمائها فريسة في أيدي المغيرين من الهكسوس • والتاريخ يدخر لنا بعض الخبر فيما كتبه مؤرخنا الوطنى « مافيتون » حيث يقول : « ان الرعاة قد استولوا على مصر في سهولة • واجتاحوها في غير حرب • لأن المصريين كانوا يومئذ في ثورة واضطراب » • ولعل في حديثه هذا ما يمكن أن ينهض دليلا واضحا لسوء الحال في مصر من ذلك العهد • فلم تكد الحياة تنصف من أيام

الأسرة الثالثة عشرة ، حوالى عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح ، حتى بدأت
علة الضعف السياسى والاقتصادى تأخذ طريقها مسرعة فى كيان الدولة
وحتى أخذت عواصف الاضطراب تهب عليها من مكان قريب •

وبين أسناد التاريخ المصرى ما يؤيد رواية « مانيتون » ، فهذه بردية
ساليه (Salier) ^(١) التى كتبت أيام « منفتاح ابن رمسيس الكبير »
تشير أخبارها الى ما مهد لأيام الهكسوس فتقول : « ولقد حدث
أن وباء كان فى مصر ، ولم يكن هناك من سيد (بين المصريين) يقوم
ملكا (عليهم) » •

وليس عجيبا أن تصاب البلاد بالوباء فى ذلك العهد • فلن يكون
من وراء الخلاف بين زعماء البلاد وحكامها غير الفساد وغير الجوع
وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية جميعا • فلم تسؤ أحوال
المصريين بقدر ما ساءت فى عهد الماليك • ولم يجمع الشعب المصرى
بقدر ما جاع فى عهد الماليك • ولم تصب مصر بوباء الطاعون مثلما
أصبحت فى أيام الماليك • ومصر على عهد الماليك — كما نعرف —
قد كانت أقاليمها قسمة بين الحكام ، يتمتعون بثمارها وينعمون بخيراتها
بينما يبيت الزارعون والعاملون من أبناء هذا الشعب على الطوى ،
يفترشون الحصباء وتأكل أسواط الحاكين أديمهم أكلا لما •

ولقد نستطيع بعد ذلك الوصف القصير الذى جاء على لسان
« مانيتون » • وأيده ذلك السند من أسناد التاريخ ، أن ندرك مقدار
ما أصاب البلاد من الانحلال السياسى فى ذلك العهد • وكيف أن الخلاف
بين زعماء هذا الوطن وحكامه لم يمكن أهله من الاجتماع تحت راية زعيم
يقودهم ، أو حول عرش سلطان يظلمهم •

(١) يرجع تدوين ذلك القرطاس إلى أيام الملك منفتاح بن رمسيس الأكبر من الأسرة التاسعة
عشرة . والقرطاس محفوظ بالمتحف البريطانى •

اسم الهكسوس:

يسميه مؤرخنا الوطنى مانيتون «هكسوس» • ثم يعرض لتفسير الاسم فيقول ان معناه «ملوك الرعاة» • على أن المؤرخ قد اعتمد فى هذا التأويل على لغة المصريين فى عصورها المتأخرة^(١) • وجاء المؤرخ اليهودى «يوسف» وهو الذى نقل عن «مانيتون» فسمى الهكسوس «أسرى الرعاة» • وأكبر ظنى أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللفظين المصريين «حقا» بمعنى «حاکم» و «حاق» بمعنى «غنيمة» • و «يوسف» لم يكن مؤلفا وانما كان ناقلا ؛ نقل عن «مانيتون» وحرف ما نقل لحاجة فى نفسه^(٢) •

وهو بعد ذلك قد كان غريبا عن مصر ، وعن لغة المصريين ، وكان اعتماده على الرواية — كغيره من الكتاب — أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحرى • سمع تأويل الشعب لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون • وللشعوب غرام عجيب بتفسير الغامض من كل اسم ولفظ ، تدفعهم الى ذلك نوازع مختلفة لا تكاد تخلو من غرض • فأنت تسمع من أهل التأويل فى مصر اليوم ، أن القيوم مثلا معناها «ألف يوم» وأن «ميت رهينة» معناها «مائة رهينة» لأن الرومان كانوا يأخذون من سكانها المسيحيين فى كل يوم «مائة رهينة» ليرهبوا أهلها ، وليردوهم عن دينهم • وأن «سالموط» معناها «سواء لوط» وآية ذلك أن حاكما من حكامها يدعى «لوط» قد طغى واستعلى وقال للناس

(١) لما ساءت أمور المصريين إبان انحلال دولة الفراعنة ودخول النوبيين عند مطلع القرن الثامن قبل مولد المسيح ، نزل المصريون بألسنتهم من سماء اللغة الفصيحة الصحيحة المقدسة إلى حضيض الأرض ، واتخذوا من دارج القول وعامة اللفظ لغة لهم ، وهى ما اصطاح المؤرخون على تسميتها بالغة الديموطيقية أى «لغة العامة» •

(٢) كان الرجل موتورا من «أيون النحوى السكندرى» أحد علماء زمانه ، وكان ذلك الأخير من أشد أهل زمانه بغضا لليهود ، رماهم فى أصلهم ، وطعن عليهم فى أخلاقهم ، ووصفهم بصفات منفرة كريهة ، فأنبرى له يوسف ونقل من حطام ماشون ذلك الفصل الذى عقده فى تاريخ الهكسوس ، وحاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود ، ليرد عن قومه مارمام به «أيون» السكندرى •

أنا ربكم الأعلى ، ثم اتخذ لنفسه سماء من زجاج ، ورفع عليها عرشه ، فأصبح الناس من أجل ذلك يسمون تلك المدينة « سماء لوط » . وأن كلمة « فرعون » أصلها « فرعون » ؛ وعون « هذا هو عون بن عنق » . وكان طاغية أهراب جيوش المسلمين . فلما دهمته ذات يوم وأعانها الله على هزيمته ، لاذ بالفرار فتهلل الناس لذلك وقالوا فرعون . وأن « أبو جرج » والقرية التي تليها من ناحية الغرب وهي « صفط أبو جرج » قد كان يقوم على حكمها جبار يدعى « أبو جرج » ، بينما قامت على حكم « صفط » امرأة يقال لها « صفاء » رزقها الله مالا وافرا وجمالا رائعا . فترأى « لأبي جرج » أن يتزوج من « صفاء » ليفيد من مالها ويستمتع بجمالها . ورأت هي في ذلك ما يحميها من بأسه وعدوانه ، ويظلها بقوته وسلطانة . ولما قبلت سماها الناس يومئذ « صفة أبو جرج » . وصارت التاء طاء فأصبحت « صفط أبو جرج » وأطلق ذلك الاسم على القرية من ذلك الوقت وما زالت تحمله حتى يومنا هذا . وأمثلة ذلك كثيرة نسمعا من أهل مصر في أقاليمها المختلفة .

ومن الجائز أن الكاتب اليهودي قد كان متأثرا بقصة ذلك النبي الكنعاني « يوسف بن يعقوب » . وأنه قد تأثر بما وقع ليوسف من اخوته حينما حقدوا عليه فألقوه في غيابة الجب ، ثم جاءت سيارة فأخذوه الى مصر وباعوه بيع الأسير الرقيق . ولعل الكاتب قد عمد الى هذا التأويل ليلائم بين حكام الهكسوس وبين الكنعانيين الذين وفدوا على مصر في أعقاب الصديق ، وليدفع عن اليهود ما رماهم به أبيون السكندري من نقائص .

والمعقول أن يكون مرجع اسم الهكسوس وأصله الى الكلمة المصرية « حقا خاسوت » بمعنى « حاكم البلاد الأجنبية » ويجمع على « حقاو خاسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » . وبذلك نعت ملوك الهكسوس أنفسهم على ما خلفوا من آثار في هذا الوادي .

ولعل أبعد عهود اللغة المصرية بهذا الاسم أن تكون أيام الدولة الوسطى . لأن اللفظ قد ورد في « قصة سنوهى » المعروفة ابان حكم هذه الدولة . « وسنوهى » قد نعت به حكام فلسطين الذين رأهم وعاشر بعضهم بعد هروبه من مصر واقامته في تلك الأقاليم الآسيوية . كذلك ورد اللفظ أيام الدولة نفسها في نقوش قبرأمير من أمراء الأقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد (اقليم بنى حسن) يدعى « خنوم حتب » وقد عاش ذلك الأمير في أيام الملك « سنوسرت الثانى » ، وسجل في قبره حادثا من الحوادث التاريخية ، يشير الى مجيء احدى القبائل الآسيوية الى مصر .

والظاهر أن احدى قبائل فلسطين قد هاجرت الى مصر في أيامه ، وعلى رأسها أمير يقال له « أبشاي » يحمل لقب « حاكم البلاد الأجنبية » وهو نفس اللقب الذى كان يحمله ملوك الهكسوس في مصر . ولقد سجل « خنوم حتب » رسوم أعيان تلك القبيلة ، يتقدمهم أميرهم المذكور . وأنا لنتبين من صورهم وسخنهم وأزيائهم أنهم كانوا ساميين ؛ فشعورهم طويلة ولحاهم مرسله ، وأرديتهم ملونة ، ومظاهرهم تخالف مظاهر المصريين جميعا .

ويكاد علماء التاريخ المحدثين أن يتفقوا جميعا على المعنى الذى قدمنا فى أصل تسمية الهكسوس . حاشا المؤرخ الألمانى الكبير « ادوارد ماير » الذى ينظر الى ذلك الرأى فى شىء من الشك ، وان كان لا يكاد يتخذ لذلك الشك سبيلا أو يقيم عليه دليلا .

وللهكسوس فى لغة المصريين أسماء مختلفة ؛ نشأ بعضها عن الكره الذى ملأ قلوب أهل البلاد لأولئك الذين اجتاحتوا أرضهم ، واغتصبوا أوطانهم ، ويشير بعضها الى وطن القوم اشارة عامة ليس فيها شىء من ملكهم ، ونهبوا أرزاقهم ، وأذوهم فى دينهم ودنياهم ، وأذلوهم فى التخصيص . فالمصريون يسمون الهكسوس « الطاعون » أو « الوباء » وتلك تسمية أساسها الكره والبغض من غير شك ، كما يسمى الأورييون أهل المغول « الخطر الأصفر » أو « الوباء الأصفر » وأسموهم

« العامو » بمعنى « الأسويين » أو « الساميين » ؛ وأسموهم « منتيوستت » بمعنى « البدو الأسويين » .

وقديما كان المصريون يطلقون هذا الاسم على القبائل الاسيوية التي كانت تغير على المناطق الشمالية الشرقية من دلتا الوادى ، ثم أسموهم « شاسو » أى « الرعاة » وهو اسم كان المصريون يطلقونه على البدو الضارين على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وأصلهم من فلسطين . على أنه يلاحظ فى نهاية القول أن المصريين كانوا يطلقون كلمتى « عامو » و « منتيوستت » على الساميين عموما .

وأراء المؤرخين تختلف ، وأقوالهم تتضارب ، عند الكلام عن أصل أصل الهكسوس وسبب هجرتهم إلى مصر :

الهكسوس وموطنهم الأصيل . فمن قائل انهم من بطون القبائل السامية المنتشرة فى فلسطين وفى ربوع سوريا وبلاد الجزيرة العربية ، نزحوا الى مصر بسبب ما أصاب أوديتهم من قحط وجفاف . ومن قائل ، انهم هاجروا من الأقطار السورية حينما ضاقت عليهم أرضها بسبب ما حل بهم من ظلم حكام « ميتانى » من جهة ، وبسبب ضغط المهاجرين الآريين من جهة أخرى . وهذا هو رأى المؤرخ الألمانى المعروف « ادوارد ماير » الذى يرجح أن غارة الهكسوس على مصر انما وقعت فى الثلث الأول من القرن السادس عشر قبل مولد المسيح ، وأنهم انما أغاروا عليها لاجئين مضطرين لما نزل بهم من حيف وضيق ، بعد ما وقعت هجرة الآريين فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح .

على أن كل شئ فى مصر خصوصا ، وفى الشرق القريب بوجه عام ، قد كان يمهّد يومئذ لمثل ذلك الغزو . فالقوضى كانت تسود كل نواحي الحياة المصرية ، واختلاف الزعماء يقطع أوصال هذا الوطن المنكوب ، ويسوق الشعب كله الى طريق الموت المادى والأدبى والسياسى فى وقت واحد ، ثم يدفع الشر الى مصر دفعا قويا . بينما يزداد الضغط على الهكسوس فى أوديتهم ، فيدفعهم الى الهجرة . فالشرق القريب كله كان يضطرب

بهجرة تلك الشعوب الآرية، واندفاعها بين أقاليمه المختلفة. والهكسوس — فيما نرى — قد كانوا أصحاب غزو وغارة ، يجيدون صنعة الحرب ، ويحسنون فنونها المختلفة . فلما دهموا مصر هال أهلها يومئذ ما رأوا لهم من عدة الحرب وسلاحها ، ومن خيل العدو وعجلاته الحربية . ولم يكن في طاقة المصريين يومئذ أن يستطيعوا لقاء العدو ومقاومته ، فدخل الهكسوس مصر في سهولة واجتاحوا شمالها في غير عسر .

ولما كانت هجرة الشعوب الآرية واغارتهم على الأقطار الاسيوية قد وقعت في القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح ، فمن المرجح أن تكون هجرة تلك القبيلة الاسوية التي أشرنا إليها أيام الأسرة الثانية عشرة كانت أول هجرة قام بها الساميون الى مصر في ذلك الوقت . ومن يدرى لعل قبائل أخرى قد فكرت في الالتجاء الى مصر ، فردها عن ذلك ما كانت تحشاه من قوة المصريين وازدياد سلطانهم السياسى ، وانما اعتمدت تلك القبيلة التي هاجرت تحت امرة « ابشاي » على ثراء مصر من ناحية ، وعلى ما كان لها من العشم في حسن ضيافة المصريين من ناحية أخرى . فمضى قد كانت تعرف ذلك وأكثر من ذلك . وكان أهل مصر يلقون عند تلك القبيلة السامية وأمثالها في ذلك العهد خير ما يلقى الطارق من كرم اللقاء وحسن الضيافة . وفي حديث « سنوهى » عن هجرته الى فلسطين واقامته فيها ، ما ينهض دليلا لذلك ؛ فهو لقى منهم خير الصحاب ، وتمتع عندهم بأجمل العشرة وأحسن الجوار ، ثم أصهر الى أحد شيوخهم فأضحى ولده من بعده لا يعدمون في فلسطين أبر الاعمام وأكرم الأخوال .

كان ذلك في أيام الأسرة الثانية عشرة ، وأمور المصريين على خير حال ، وسلطانهم مضرب المثل في العزة والقوة والجاه العريض . فما كاد يدال من أيامهم الى زمن الخلاف والفوضى ، وعصور الاضطراب والمحن الجبارة والانحلال السياسى ، حتى نزل الضعف منزل القوة ، وتحملت تلك القبائل الاسيوية من كل عهد وقيد .

فنسيت تقاليدھا السياسية ، ولم ترعليھا بعدئذ من حرج في أن تهاجر الى مصر ، لا هجرة الضعيف اللائذ ، ولا هجرة اللاجئ المقهور ، وانما هجرة الفاتح المغير .

فلن يكون عجا بعد هذا كله أن تغير بعض تلك القبائل السامية على مصر . والهكسوس — أكبر الظن — قد كانوا ساميين . وكان وطنهم الأصيل فلسطين . وفي تاريخ أيامهم ما يشير الى ذلك ويقوم دليلا عليه . فهذه طائفة من أسماء ملوكهم تشير الى انهم أن لم يكونوا عبريين ، فقد كانوا أقرب الناس اليهم على كل حال ^(١) .

على أن أسماء الملوك من الهكسوس لم تخل من أسماء غير سامية مثل « بنون » و « خيان » و « سلاطيس » و « أبا خنان » . ولن يكون في ذلك ما يمنع من أن يكون أصحاب تلك الأسماء من أصل سامي . فأسماء نصارى مصر — وأكثرها أوروبية محضة — لا يمكن أن تشير الى أنهم غير مصريين . وانما دفعهم الى ذلك الضعف السياسي ، والتقرب الى أوروبا المسيحية ، طمعا في حماية الأقليات . وأنا أرجو أن يكون نصارى مصر قد فطنوا الى أن في ذلك مسخا لأسمائهم ، وتشويها لحقائق التاريخ . وأن الشرق أولى بهم من الغرب . وأن المسلمين في مصر أبر بهم وأحنى عليهم من أهل الاستعمار وأصحاب المطامع الذين يدينون دين المسيح في أوروبا وغير أوروبا ، فالدين لله وحده . ومصر وطن لنا جميعا . فاذا استنكفوا أن يسموا أنفسهم بأسماء المسلمين . فعليهم بأسماء أجدادنا من المصريين فهم واجدون فيها ما هو أولى بهم وأشرف لهم من أسماء الأوربيين ألف مرة ومرة . ولست أرى كذلك من الكرامة ولا من المروءة أن يتجرد نصارى مصر من مظاهرهم الوطنية فيسمون أنفسهم

(١) من تلك الأسماء « عنات إيل » و « يعقوب إيل » من أسماء الملوك ثم « عامو » و « يعمو » و « سمن » و « عبد » و « نخبان » من أسماء الرعية .

« الخواجات » ليخلصوا من المظاهر المصرية ، وليخدعوا العالم عن الحقيقة ، ويظهروه على أنهم وأهل أوروبا المسيحية على قدم المساواة .
ملوك الهكسوس :

قسم مانيتون ملوك الهكسوس الى أسرات ثلاث : فعد للأسرة الخامسة عشرة ستة ملوك هم : « سلاطيس » و « بنون » و « أباخان » و « أبو فيس » و « يناس » ثم « أسيت » ^(١) .

ويلي أولئك فيما بقى من تراث « أفريكانوس » أسرة أخرى هي السادسة عشرة . جعل حكامها اثنين وثلاثين ملكا . ثم أردفها بالأسرة السابعة عشرة ، وجعل ملوكها فريقين : فريقا من الهكسوس ، وعددهم ثلاثة وأربعون ، ومثلهم من المصريين يحكمون في طيبة . وينتهى حكم الفريقين بخروج الهكسوس من مصر .

وبين آثار ذلك العصر ومخلفاته الكتابية ما يظهرنا على وجود ملوك ثلاثة اسم كل منهم « أبو فيس » ، وهم على التعاقب : « عاوسر رع أبو فيس » و « نب خبش رع أبو فيس » و « عا قن أبو فيس » . هذا وبين ملوك الهكسوس فريق يسمون أنفسهم حكام البلاد الأجنبية وهم « سمقن » و « عنات ايل » ^(٢) ثم « خيان » ^(٣) .

وفريق ثالث من ملوك الهكسوس لقب كل منهم نفسه بلقب « الاله الطيب » أو « الاله الطيب » جريا على عادة السلف من فراعين مصر وأولئك هم على التعاقب : « عا حتب رع » و « أو سر رع » و « خع أو سر رع » و « خع ان رع » و « ما عت آيب رع » و « نب تاوى رع » ثم « خع مو رع » .

(١) لم تسجل الآثار من أسماء أولئك غير اسمي ملكين ، أحدهما « أبو فيس » والثاني « يناس » ، وأكبر الظن أن يكون ذلك الأخير هو بعينه « خيان » .
(٢) ليس يملك التاريخ من أسماء أولئك الملوك غير جعلين ، أحدهما من تل اليهودية والثاني من تل بسطة .
(٣) وجد اسمه على جعل أيضاً .

وفريق رابع جعلوا أنفسهم من أبناء الشمس جريا على عادة ملوك مصر من الفراعنة • وليس يملك التاريخ من آثارهم غير أفعال تسجل أسماءهم على الوجه الآتى : « ابن الشمس شيشى » « ابن الشمس سكت » « ابن الشمس يعقوب ايل » « ابن الشمس ايعى » « ابن الشمس عامو » « ابن الشمس قار » •

ثم عثر بين أنقاض منف على أثر يحمل أسماء ملوك ثلاثة من أيام الهكسوس هم « عاقن » و « شرق » و « أبو فيس » ^(١) •

آثار الهكسوس

وبعد فأنا أشعر بأن عشاق التاريخ المصرى وقراءه من غير الأثريين وأصحاب التخصص انما يضيّقون به وينفرون منه اذا ماجاء محشوا بأسماء الملوك وآثارهم وسنى حكمهم • وان أكثر الذين سقطوا على كتب التاريخ المصرى فى أطوار دراستهم قد نفروا منه وهجروا من أجل ذلك • وانى لأعذرهم فيما كانوا يفعلون ، لأن آثار الملوك وعهودهم وأعمالهم المختلفة ليست الا وسيلة الى وصف ألوان الحضارات الانسانية وتحديد فتراتنا وتطورها • ومقدار ما أصابت الأمة من تقدم فى العلوم والآداب والفنون المختلفة ، ومقدار حظها من المساهمة فى تحضير الدنيا ونصيحتها من تقدم الفكر الانسانى • ولقد أشعر أن الله وفقنى الى أكثر ما يبتغى القراء والطلاب فى اخراج الجزء الأول من تاريخ مصر الفرعونية ^(٢) . وأنا عظيم الأمل فى أن أصيب بعض ذلك التوفيق فى اخراج السفر الثانى ان شاء الله • على اننى أرجو ألا يضيق القارىء بما يجد فى هذا الفصل من ذكر

(١) يرجع الأثر إلى أوائل القرن السادس قبل مولد المسيح ، دونه كاهن من كبار كهان منف . وسجل عليها أسماء السلف من آباءه الذين ورث عنهم ذلك المنصب الدينى الخطير . ثم أسماء الملوك الذين عاش آباؤهم فى ظلهم ومن بين أولئك ثلاثة من الهكسوس والأثر محفوظ بمتحف برلين (٢) فى « موكب الشمس » الجزء الأول فى تاريخ مصر الفرعونية ، من جفيرة الصادق إلى آخر الضحى .

ذكر أسماء الهكسوس وآثارهم ، لأننى مضطر الى ذلك اضطرارا ، ما أكاد أتخيل منه . فالهكسوس قد كانوا غرباء ومدة حكمهم كانت قصيرة فهي لا تعدو قرنا ونصف قرن . ومع ذلك فقد أثرت هذه الفترة في توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل وفي أقاليم الشرق القريب . ومن الخير بعد هذا أن نضع أبصار القراء على آثار أولئك الملوك ليعرفوا مدى توغلهم في أقاليم الوادى ، وانتشار سلطانهم بين أقطار الشرق . وأنا أعد القارئ ألا يطول الحديث فهو لن يعدو أيام ملوك ثلاثة كل منهم يدعى « أبوفيس » قامت ثورة الحرية في أيام أحدهم على كل حال . فأما أحدهم فهو الملك « عا أوسر رع أبو فيس » ومن آثار أيامه :

- ١ — حطام أداة من أدوات الكتابة عثر عليها في واحة الفيوم ^(١) يزعم صاحبها أنها أهديت اليه من ذلك الملك ، وينعته فيها بنعوت تشير الى شدة بأسه واتساع سلطانه ، منها أنه كان « ربا للشمال والجنوب » و « خليفة الشمس على هذه الأرض » ، « لا نظير له في بقاع الأرض جميعا » ، و « أنه بطل حرب وقرم نزال تمتد شهرته الى أطراف الدنيا » .
- ٢ — أثر من حجر لا يكاد يحمل غير اسمه ، وجد في جبلين ، وفي ذلك ما يشير الى أن سلطانه قد وصل الى تلك البقاع من وراء طيبة ^(٢) وان حكام الصعيد في أيامه لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتفاظ بمظاهر استقلالهم في حدود ما يحكمون . وليس ببعيد أن يكون الهكسوس قد أقاموا بعض الحصون في تلك البقاع النائية من صعيد الوادى ، وأن يكون بعض أمراء الأقاليم من المصريين قد استقلوا بما وراء ذلك من « الكاب » حتى مطلع الوادى عند جزيرة فيلة .
- ٣ — كذلك ورد اسمه في فقرة بين سطور قرطاس من القراطيس

(١) يوجد الأثر في متحف برلين تحت رقم ٧٧٩٨

(٢) الأثر محفوظ بمتحف القاهرة تحت رقم ٢٩٢٣٨

البردية تشير الى حادث عله وقع فى العام الثالث والثلاثين من أيام حكمه (١) .

٤ — وأخيرا وعاء من جرانيت يحمل اسمه واسم ابنه ، عثر عليه فى قبر « أمنوفيس الأول » بجبانة طيبة ؛ ولعل فى ذلك ما يشير الى أن نفوذه قد بلغ طيبة ؛ وجائز أيضا أن يكون الأثر قد حمل الى طيبة من مكان بعيد .

وأما ثانى أولئك الملوك فيدعى « نب خبش رع أبو فيس » ولم تخل أيامه من آثار تشير اليه منها :

١ — خنجر من برونز يحمل اسمه ، عثر عليه فى جبانة منف (٢) وفى مدفن رجل يقال له « عبد » ولم يكن « عبد » هذا صاحب الأثر المذكور . وإنما كان صاحبه رجل يقال له « نحماس » . وظاهر من هذين الاسمين أن صاحبيهما لم يكونا من المصريين . ومن المرجح أن يكون الأول من ولد الثانى أو من أقاربه أو من أتباعه . وكان « نحماس » تابعا للملك يحرسه فى غدواته ورواحاته ، فلا غرابة فى أن يحمل السلاح ويعتز به أبناءؤه أو أتباعه من بعده ، ولا غرابة فى أن يتخذ رجل مثل « أبوفيس » حراسه من الاسيويين دون المصريين ، فمن الطبيعى أنه كان لا يأمن جانب المصريين ، بل كان يخشى منهم على حياته ؛ على أن أكثر ما يهمنى من أمر ذلك الأثر ، هو ما يتحلى به من نقوش تشير كلها الى أن الصانع المصرى فى ذلك الوقت قد تأثر بما كان شائعا من فنون جزيرة كريت . ولسوف نشير الى ذلك فى حينه .

٢ — كذلك ورد اسم هذا الملك على قطعة من حطام وعاء ينعت فيه نفسه بنعوت الملوك من فراعين مصر فيسمى نفسه « الاله الخير » ويسمى

(١) يعرف هذا القرطاس فى الدوائر العامة باسم بردية ريند Rhind الحسابية وهى موجودة بالمتحف البريطانى Peet, E. The Rhind Mathematica IPap. Liverpool 1923.
(٢) لأثر محفوظ بمتحف القاهرة .

نفسه « ابن الشمس وحبيها » • على أن ذلك الحاكم لم ينفرد وحده بين ملوك الهكسوس بذلك الانتساب الى الشمس • وانما الواقع أن أكثرهم قد فعلوا ذلك • وانى حين أفكر فى تلك الظاهرة أكاد أشعر أن لكهان الشمس من أهل هليوبوليس أثرا فى هذا التوجيه • وهم قوم عرفوا بنشاطهم العجيب فى التبشير بعقيدتهم فى جميع عصور التاريخ المصرى ؛ ولم يكن تقديم مثل تلك العقيدة الى الهكسوس بالأمر العسير ؛ فهم قد كانوا فى آسيا ، والاسيويون على العموم كانوا يعرفون التفكير فى الشمس وما عداها من كواكب السماء ونجومها • ومن يدرى لعل لكهان هليوبوليس قد فكروا يومئذ فى الاستعانة بقوة أولئك الفاتحين على بعث دينهم ونشره فى أقاليم الوادى • ومعروف كذلك أن الهكسوس قد تركوا آثارا حول هليوبوليس فى المكان المعروف باسم « تل اليهودية » ؛ فلقد كشف لهم هناك عن أنقاض حصن ، كما عثر فى جبانته على أفعال تحمل أسماء بعض ملوكهم •

وثالث أولئك الحكام هو الملك « عاقن رع أبوفيس » ومن آثار أيامه ما يأتى :

١ — قطعة من حطام وعاء تحمل اسمه • وجدت فى خرائب منف^(١) ولا غرابة فى ذلك فالهكسوس قد وصلوا الى منف وأقاموا فيها • وفى أخبار « مانيتون » ما يشير الى ذلك فهو يحدثنا عن ملك لهم يقال له « سلاطيس » كان يختلف الى منف ويقيم فيها لوضع الخراج وتوزيعه على أقاليم الوادى •

٢ — كذلك ورد ذكره على مذبح من حجر الجرانيت الأسود • وليس يستبعد أن يكون قد وجد فى خرائب منف أو عند أطلال هليوبوليس • وعلى الأثر من النصوص ما يشير الى أن الملك قد أقامه لأبيه المعبود « ست » رب « أواريس » •

(١) الأثر محفوظ بمتحف برلين تحت رقم ٢٠٣٦٦

٣ — وأخيرا تمثال له عثر عليه في تانيس (أواريس) يحمل اسمه وألقابه ومن بينها لقب « أمير الجيوش » وظاهر من وضعه أنه كان شديد الاعتزاز به .

وأكاد أشعر حين أنظر في هذين الاثرين ، وما جاء عليهما من اهتمام الملك بمعبوده « ست » رب أواريس الذي يزعم أنه جعل ملك الدنيا تحت قدميه . ثم من اعتزاز الملك بلقب « أمير الجيوش » وجعله ذلك اللقب ضمن أسائه ، أنه هو بعينه صاحبنا « أبوفيس » الذي رمى بشرارة الثورة الأولى عندما أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم في طيبة « سقن رع » ويتحرش به . وأغلب الظن أن « أبو فيس » هذا قد كان رجل حرب وكفاح . وكان يحس لنفسه شيئا من قوة . ويكره أن يرى في صعيد البلاد من المصريين من يستقل ببعض أقاليمه . وكان لأمر طيبة في ذلك الوقت قوة أقل ما يقال فيها انها كانت جديرة بالاعتبار . فأنارت اهتمام « أبوفيس » حتى فكر في أن يمتحنها . ومهد لذلك بارسال الرسل الى بلاط طيبة . وسرى عند الكلام عن الثورة كيف أن بعض المؤرخين قد فكر في أن يكون أولئك الرسل قد جاءوا يأترون بالملك ليقتلوه . وكيف أن اسم « ست » معبود الهكسوس قد أقحم في أمر الاعتداء . واتخذ وسيلة من وسائل التحرش بالملك المصرى . ومهما يكن من شيء فأنا أشعر في نهاية الأمر أن ملك الهكسوس قد فكر في أن يمتحن أميرنا المصرى ليرى مبلغ قوته واقدامه على الحرب أو احجامة عنها . وكان يطمع في أن يظفر به ليبلع مدى ما كان يحلم به من سلطان على هذا الوادى .

مبلغ سلطان الهكسوس

جاء في أخبار مؤرخنا الوطنى «مانيتون» أن الهكسوس قد استولوا على مصر في سهولة . وملكوها دون أن يشعلوا نار حرب . لأن أمور المصريين

يومئذ كانت مضطربة أشد الاضطراب • ولأن البلاد قد كانت مستعدة للسقوط مقبلة عليه في غير تردد • فالفوضى قد عمت أمور المصريين جميعا منذ عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح • وملكت عوامل الضعف كيان دولتهم فما يكاد يفلت منها وما تكاد ترفه عنه •

وبين آثار المصريين ما يؤخذ حديث « مانيتون » ؛ فهذه بردية ساليه (Sallier) المعروفة ^(١) تحدثنا عما كان في مصر يومئذ من خطر ووباء • وعما أصابها من فقر الى رجال الحكم والنظام من أبناءها • وفي ذلك ما يشير الى أن أحوال مصر السيئة قد كانت كلها متفقة على الشر مدفوعة اليه دفعا قويا • كاتما كانت واردة الغزاة على موعد واتفاق • فبلغ الهكسوس دلتا الوادى وسيطروا على شمالها • جاؤوها بجيولهم وعجلاتهم الحربية • وتطلع المصريون الى ذلك الغزو فملأهم الخوف وملئهم الرعب من سلاح العدو الذى لم يكن لهم به عهد من قبل •

جعل الهكسوس حاضرة ملكهم (أواريس — صان الحجر) من شرق الدلتا • ثم أخذوا يمدون سلطانهم على أقاليم الوادى • فتركوا غرب الدلتا تحت امرة حكام من الوطنيين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة • ثم واصلوا زحفهم نحو الجنوب فبلغوا « منف » واتخذوا منها قاعدة لادارة شئون البلاد الاقتصادية • وبين أخبار « مانيتون » ما يشير الى فظائع الهكسوس في مصر وما كان من تلك الأهوال المروعة التى هدت كيان المصريين هذا • فهم قد حرقوا القرى والمدائن وخرّبوا العماير والمعابد • وأخذوا الناس بالصارم العنيف ، فذبحوا الرجال ، وساقوا الأطفال ، وسبوا النساء ، ثم وصل ملكهم سلاطيس الى «منف» واتخذ منها قاعدة لادارة شئون البلاد الاقتصادية • وكان يختلف اليها بين الحين والحين • بذلك يحدثنا « مانيتون » ؛ على أن أمر سلطان الهكسوس لم يقف عند « منف » وانما ظلوا يواصلون زحفهم ، ويمدون سلطانهم حتى بلغوا حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الجنوب •

(١) وجدت هذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتيمس » على مقربة من جبانة بنى حسن •

وبين اسناد التاريخ المصرى ما يؤيد بعض رواية « مانيتون » ويشير الى بلوغهم ذلك المدى من حدود الأقاليم الوسطى .
 جاء فى أخبار الملكة « حاتشبسوت » انها أصلحت دار عبادة للمعبودة « حانخور » بجهة القوصية فى شمال أسيوط ، وانها عمرت الخراب وأتمت الناقص من معابد الوادى وعمائره بعد الذى أصابها على أيدي حكام الهكسوس^(١) .

وفى حديث الملك « كامس » أحد أبطال ثورة الحرية . مع أمراء جنده ورجال بلاطه^(٢) ما يؤيد امتلاك الهكسوس لأقليم الاشمونين بعد « منف » وبلوغهم بلدة « القوصية » من شمال أسيوط^(٣) .
 هذا ويرى بعض المؤرخين من أمثال « ادوارد ماير وفلندر بترى » أن نفوذ الهكسوس قد تعدى حدود مذكرنا فبلغ ما وراء طيبة ويستندون فى رأيهم الى ما ظهر من تدوين اسمى الملكين « خيان » و « أبوفيس » فى منطقة « جبلين » من نواحي طيبة . على أن التاريخ الذى يتلمس التوافه من الأمر أحيانا ، ليقيم حجه ويظهر آيته ، قد لا يستند مطمئنا الى ما ذهب اليه أولئك المؤرخين من امتداد نفوذ الهكسوس الى

- (١) وجدت هذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتيمس » على مقربة من جبانة بنى حسن
- (٢) وردت أخبار الكفاح فى أيام ذلك البطل على لوح يعرف بلوح « كارنارفون » .
- (٣) كانت القوصية تعتبر الحد الفاصل بين أقاليم الجنوب وأقاليم الشمال . ويتجلى أمر ذلك بوضوح عند النظر فى التقسيم الإدارى الذى استقر فى أيام الإمبراطورية المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها، حيث جعلت إدارة الأقاليم المصرية من مطلع الوادى عند اسوان الى شمال أسيوط تحت إشراف كبير وزراء الصعيد . وتركزت إدارة الأقاليم من أسفل أسيوط الى أقصى الشمال تحت إشراف كبير وزراء الشمال . وهذا وقد سمي المصريون معبود أسـيـوط « فاتح الطرق » وصوروه على هيئة كلب من بنات آوى، وأكبرالظن أنهم كانوا يتخذون منه علماً فى زحفهم نحو أقاليم الشمال . وفى اسم ما يشير الى ذلك . وكانوا يدعونه « الحارس » وفى ذلك ما يشير إلى عقيدتهم فيه . جعلوه حارسا للملكهم فى الصعيد . ومن المرجح أن المصريين قد كانوا يتخذون من « أسيوط » حصنا يدراون به لغارة الطامعين فى ملكهم .

ما وراء طيبة • لأننا نعلم أن أقاليم الصعيد الأقصى من مطلع الوادى الى شمال أسيوط قد كانت كلها تحت أمرة المصريين • وإذا كان لابد من النظر الى مثل هذا السند الضعيف من أسناد التاريخ ، فمن المرجح أن تكون بعض جيوش الهكسوس فى محاولاتها قد بلغت ما وراء طيبة فى فترة من فترات الضعف التى مرت بحكام الصعيد • ولما لم تستطع البقاء كرت راجعة الى الشمال ، واكتفت بحظها من أقاليم الشمال والوسط • وجائز أيضا أن يكون الهكسوس لم يعدموا من والاهم من الخونة المصريين الذين كانت تدفعهم الأطماع السياسية والمادية يومئذ الى الخروج على بيت طيبة • فاذا صح هذا الفرض فمن الجائز أن يكون أولئك الخونة قد اتخذوا من تدوين أسماء بعض ملوك الهكسوس فى تلك البقاع النائية من صعيد الوادى مظهرا من مظاهر الولاء للهكسوس والخروج على الحكومة الوطنية فى طيبة •

وإذا جاز أن يكون الهكسوس قد بلغوا طيبة فى بعض أيامهم ، فلن يكون غريبا أن يقع ذلك فى أيام مليكهم «خيان» ؛ فهو قد كان فيما يظهر من أقوى ملوك الهكسوس وأشدهم بأسا وأوفرهم أثرا ، وأوسعهم سلطانا • وليس أدل على ذلك من كثرة ما خلف من آثار لعلها لم تتفق لغيره من حكام الهكسوس • وهى لم تقتصر على مصر فحسب ، وإنما عدتها الى سوريا وفلسطين ، وبلاد النهرين ، وجزيرة كريت (١) •

ويحاول « ادوارد ماير » أن يتخذ من تلك الظاهرة دليلا على انتشار سلطان الهكسوس فى تلك البقاع من أرض الشرق القريب ومن جزائر

(١) وجد أسم خيان على كثير من الآثار، تتمثل فى أجمال وغير أجمال: منها ما وجد فى مصر، ومنها ما وجد فى أقاليم الشرق وجزائر البحر. وجد اسمه مدونا على قطعة من الجرانيت الأسود فى جبلين من نواحي طيبة ، ثم وجد على طائفة من الأجمال فى فلسطين وسوريا ، ثم على تماثيل لسبع وجد فى بغداد ، وانتهى الى المتحف البريطانى بمدينة لندن • ثم على غطاء وعاء من رخام عثر عليه بين أنقاض أحد قصور « كنوسوس » بجزيرة كريت، ثم انتهى الى متاحف أوروبا •

بحر الروم وهو رأى قد يخالفه فيه بعض الناس^(١) وأكاد حين أنظر في رأى المؤرخ العظيم ، أن أنخيل طينا من شك يجعلنى أدور من حوله دون أن أطمئن الى قبوله فى سهولة ، لأن آثار « خيان » قليلة ، ولأنها قد تكون بلغت تلك البقاع عن طريق البدل والتجارة • ثم أحاول من ناحية أخرى أن خالف عن رأى « ماير » فلا أكاد أطمئن الى ذلك كثيرا • فقلة الآثار وحدها قد لا تكفى لاثارة الشك ، لأن آثار الهكسوس جميعا بالقياس الى أيامهم قليلة أيضا • وإذا كانت آثار « خيان » فى سوريا وبلاد الشرق لم تتأثر بفنون الشرق وهواه ، وآثرت أو آثر لها أصحابها أن تحمل الطابع المصرى الخالص ، فذلك لأن الهكسوس قد أقاموا فى مصر واستقروا فيها ، وجعلوا فيها عاصمة ملكهم • ولم يعرف كذلك عن الهكسوس أنهم كانوا أصحاب فنون ؛ بل كانوا أهل حرب وغارة • والحروب لا تتيح للناس فرصة التفكير فى الفنون أو النظر فيها الا بمقدار •

ولعل أبصارهم لم تتجه الى الفنون الجميلة وآثار الحضارات الرفيعة الا فى مصر • فلا غرابة اذا فى أن تصدر فنون أيامهم مطبوعة بالطابع المصرى الخالص • ومن الأسباب التى تجعلنى أميل الى رأى « ماير » هو أننا لم نسمع صوت هذه البقاع الشرقية يدوى فى أيام الهكسوس • ولو كان لها صوت لسمعته الدنيا وسجله التاريخ ولجاز أن يكون لها قوة ، ولو كان لها قوة ، لنازعت الهكسوس سلطان الشرق ، أو نزعت على الأقل الى الخلاص من سلطانهم • ولكنها — فيما يظهر — قد آثرت العافية ، واستسلمت كما استسلم غيرها لجبروت الهكسوس ، حتى أزال الله ملكهم من عالم الوجود •

(١) ومن الذين يرون أن يخالفوا « ماير » فى رأيه زميلنا الدكتور باهور لبيب فى رسالته التى كتبها عن حكومة الهكسوس ، ويتعلل فى ذلك بقلة الآثار • وعدم تأثرها بفنون الأقاليم التى وجدت فيها •

وسبب آخر لا يجوز أن نغفل عنه ، وهو ما نلحظه في تاريخ الثورة المصرية من بعد قريب ، من ميل أصحاب «كريت» للمصريين ومساعدتهم اياهم في الجهاد ضد الهكسوس ، فقد يكون في ذلك مايشير الى أن أهل تلك الجزيرة قد كانوا والمصريين في الهم سواء .

أكاد أشعر في النهاية بأن سلطان الهكسوس قد تعدى مصر الى غيرها من أقطار الشرق القريب . فهم كانوا أصحاب قوة وبأس . ومع ذلك نراهم يكتفون من مصر بأقاليم الشرق من دلتا الوادى ، بينما يتركون حكم أقاليمها الغربية لحكام من المصريين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة ويجعل حاضرتهم « سخا » . كما حكم أمراء الصعيد أقاليمه العليا من مطلع الوادى عند فيلة الى أسيوط . واتخذوا طيبة قاعدة لحكمهم .

فنحن لانكاد نتجاوز حدود المنطق كثيرا ، ان نحن وقفنا الى جانب « ماير » ولم نخالف عن رأيه كثيرا . فقد يكون من المرجح أن تلك البقاع من بلاد الشرق القريب وجزائر بحر الروم قد كانت واقعة تحت نفوذ الهكسوس ان لم يكن في أيام بعضهم ففى أيام يليكهم « خيان » على الأقل .

مدافن الهكسوس وعقيدتهم الدينية

وجدت مدافن الهكسوس متفرقة في أكثر من مكان من أقاليم الشمال والوسط . وجدت في تل اليهودية على مقربة من هليوبوليس ، ثم في أبو صير الملق و «سدمنت» في الجنوب من اقليم منف . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن الهكسوس وان كانوا قد حاولوا نشر سلطانهم في أقاليم الجنوب ، فانه لم يقدر لهم الاقامة فيها . وانما الراجح أن جالياتهم قد نزلت في الشمال وحول رأس الدلتا ، على مقربة من منف وهليوبوليس أى أنهم نزلوا في موازين الأرض من أقاليم مصر . كذلك وجدت بعض

قبور الهكسوس في فلسطين من نواحي «غزة» و«بيت بليت» • هنالك كشفت الأبحاث العلمية في تلاها عن قبور غير قليلة للهكسوس • وطالعتنا هذه القبور بطائفة من تلك الأفعال التي تحمل اسم الملك « أبوفيس » ، كما عثر فيها على مدافن لحير أربعة (١) • وليس من شك في أن دفن الحيوان إنما يشير الى تقديسه كما كانت الحال في مصر الفرعونية (٢) •

وقدما المصريين قد كانوا أئمة الناس في هذا الباب ، وإن كان تاريخهم لا يكاد يشير الى شيء من تقديس الحمار — رغم تقديسهم لأكثر أنواع الحيوان — ورغم وجود الحمار في مصر • فانه كان معروفا منذ أبعد عصور التاريخ • وكان لدى المصريين من دواب الحمل المعروفة الا أنهم فيما يظهر لم يقدرُوا فيه الصبر وقوة الاحتمال • كما فعل أهل البلاد العربية في المشرق والمغرب • فالهكسوس هم الذين قدرُوا وقُدسُوهُ من غير شك ، ثم عبدُوا الههم « ست » أو « ست بعل » في صورة الحمار (٣) • وليس يستبعد كذلك أن يكون الساميون الذين قدرُوا ذلك الحيوان قد كانوا يقُدسونه في عهودهم البعيدة • وفي تاريخ العرب ما يشير الى تقديرهم لذلك الحيوان • فهذا « مروان بن محمد » أحد حكام بني أمية كان يلقب بالحمار • لأنه كان لا يحف له لبد في محاربة الخارجين

(١) وجدت مدافن الحمار على مستوى بلى مدافن الآدميين • ولعل في ذلك معنى من معاني تقديس الهكسوس لذلك الحيوان • كذلك عثر في تلك المدافن على قبور للخيول ولكن على مستوى ينخفض من مستوى مدافن الحمار • ومن المرجح أن يكون في دفن الهكسوس الخيل ، ما يشير الى تقديرهم لذلك الحيوان النافع ، فهو قد نفهم وأعانهم على بسط نفوذهم ونشر سلطانهم بين مصر وأقاليم الشرق القريب •

(٢) كان المصريون يعتقدون أن أرواح الحيوانات المقدسة إنما تلجأ الى تلك القبور لزيارة أصحابها على نحو ما تفعل أرواح الموتى من بني آدم. ولقد وجدت مدافن الحيوان عندهم منذ أبعد أيام خبر التاريخ • فمدافن البقر قد وجدت في البدارى قبل مطلع الصبح من تاريخ مصر بزمان بعيد • (٣) ولقد يؤيد ذلك أن أحد ملوكهم يدعى « عاقى » بمعنى « الحمار قوى » يعنى قوى لأنه خلعه وسواه. وملكه وأيده • وهى تسمية مصدرها الحمد والشكر والإعجاب • ومن الشواهد التي تدل على أن الهكسوس قد عبدوا « ست » في صورة الحمار • أن اسم الحمار قد بدأ يكتب في لغة المصريين مخصصاً بصورة الإله ست منذ أيام الهكسوس •

عليه • فكان يصل السير بالسير • ويصبر على مكاره الحرب ، وكان فوق ذلك شجاعا داهية ^(١) .

وكذلك فعل أهل المغرب العربي فلقبوا بطل برقة « بحمار برقة » وظاهر من هذا كله أن العرب قد فطنوا الى ما في ذلك الحيوان من قوة الصبر والقدرة على احتمال المكاره •

والهكسوس قد رأوا بين معبودهم السامى « بعلى » وبين المعبود المصرى « ست » كثيرا من تشابه فى الصفات والطباع • فساووا بين المعبودين وجعلوا منهما معبودا واحدا عبدوه فى صورة الحمار • والغالب أن يكونوا قد عبدوا الى جواره معبودات سامية أخرى مثل « غفات » و « عشترة » • وما نعرف أنهم قدسوا غير تلك المعبودات • رغم ما نشاهد فى مظاهر أسمائهم من الإشارة الى معبود المصريين « رع » فوجود اسم رع فى اسمائهم قد يكون غالبا من باب الاستملاح أو جريا على تقليد فراغنة مصر •

فليس فى تاريخ الهكسوس ما يشير الى أنهم عبدوا رب المصريين على الاطلاق • وفى حديث الملكة حتشبسوت الذى مر ذكره ما يؤيد ذلك • فهى قد نسبت الى الهكسوس تخريب المعابد المصرية • ونسبت فعلتهم هذه الى جهلهم بمعبود المصريين « رع » •

والظاهر أن الساميين لم ينفردوا وحدهم بين شعوب الأرض بتقديس الحمار وانما قدسه غيرهم من شعوب الدنيا والذى يقرأ أساطير اليونان • يستطيع أن يقف على قصة « مرسياس Marsyas » ويستخلص منها انه لم يكن فى الأصل ربا للنهر ولا روحا من أرواح منابع الماء وانما كان اله عبد فى صورة الحمار •

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٩ والنخارى ص ٢١٣

عاصمة الهكسوس ومعبودها القديم

لم تكن عاصمة الهكسوس حديثة عهد بدنيا المصريين • ولا هي خلقت عند دخول الهكسوس • بل لم تكن أيام الهكسوس أول عهد المدينة بعبادة الاله « ست » ؛ وانما الراجح أن عبادة الاله قد كان قائمة فيها قبل أيام الهكسوس بزمان بعيد • فالمعروف أن عبادة ذلك الاله قد عرفت في شرق الدلتا أيام الأسرة الرابعة • وكانت قائمة في مكان يقال له « سزرت » ^(١) • ولقد اتضح لكثير من علماء الآثار الذين بحثوا في تلك المنطقة من شرق الدلتا وتعمقوا في دراسة آثارها وتاريخها ^(٢) ، أن المعبودات التي قدست في عاصمة الهكسوس وعلى رأسها « ست » ، هي بعينها التي قدست في عاصمة الرعامسة من بعد ذلك •

ثم بأن للعلماء من بعد ذلك أن عاصمة الهكسوس انما قامت على أنقاض بلدة قديمة قد تكون هي بعينها « سزرت » التي كانت موطننا لعبادة الآلة « ست » في أيام الدولة القديمة • فلما دخلها الهكسوس • احتضنوا ذلك المعبود بعد أن ساووا بينه وبين معبودهم السامي « بعل » ولما كانت أيام « رعسميس الكبير » — وأكبر الظن أن تكون أسرته قد نشأت في تلك البقعة — أقام على أنقاض « اواريس » عاصمة الهكسوس عاصمة ملكه الجديدة • وأسماها « بر رعسميس » أي « بيت رعسميس » • وغالب الظن أن يكون السر في اختيار الرعامسة لذلك المكان قد كان هو بعينه الذي دعا الهكسوس الى اقامة حاضرتهم عليه • أعني أن السبب كان حربيا سياسيا • فالمكان يقع في شمال الدلتا الشرقي ، فيشرف من هنالك على صحراء العرب في الشرق ، وعلى بحر الروم في الشمال •

(١) استطاع Junker أن يستخلص هذه الحقيقة من ألقاب موظف يدعى « بحر نهر »

الذي كان كاهنا للمعبود ست ، انظر النون الخاصة بذلك في :

Maspero, Etudes de Mythologie, et Archéologie Égyptienne, in Bibliothèque Egyptologique Bd. II. 248. Auch. Junker, Giza III. SS. 96.97

بحيث يتيح للهكسوس أن يكونوا على بعد قريب من بقية أملاكهم في شرق الأرض وجزائر بحر الروم . تلك هى عاصمة الهكسوس التى عرفت باسم « أواريس » والتى بنيت على أنقاضها عاصمة الرعامسة والتى أسماها الاغريق « تانيس » ثم أسماها العرب « صان الحجر » . تلك هى المدينة العظيمة التى لعبت دورها الخطير في تاريخ الشرق السياسى . وهى ما زالت خالدة حتى يومنا هذا . لكثرة ما ضمت أنقاضها من كنوز ، ما تزال تقذف بها الى الدنيا من بين قبور الأسرة الثانية والعشرين .

بعث عبادة ست وتجديدها فى تانيس على عهد الرعامسة

عثر بين أنقاض المدينة على لوح يعرف فى كتب التاريخ والآثار باسم لوح الأربعمائة عام ^(١) . أقامه رعمسيس الثانى تخليدا لذكرى أبيه الملك سبتى وذكرى جده الأكبر وكان يدعى سبتى أيضا . وظاهر من بناء الاسمين — كما نرى — أنهما مشتقان من اسم الاله «ست» تيمنا به واعتزازا بقوته وبأسه . وظاهر أيضا أن الأسرة قد اتخذت من معبود أقليمها ربا اعتزت به وحاولت أن تدفعه الى أمام . ولعل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين اتخذوا من معبود أقليمهم « آمون » ربا لأسرتهم ودفَعُوا به فى مقدمة الأرباب جميعا . كما يتضح من اسم مؤسسها وعاهلها الأول « أمنمحات » (آمون هو الأول) ثم اندفعوا تحت رايته من بعد ذلك فأسسوا دولتهم التى عمرت قرنين ونصف قرن من أيام التاريخ الفرعونى .

أما والد رعمسيس الكبير فقد كان — كما نعرف — الملك سبتى الأول . وأما جده فكان قائدا لفيلق الرماة أيام الملك « حور محب » (حوالى

(١) أنظر :

Selhe, K. Der Denkstien mit dem Datum des jahres 4 00 der Aera von Tanis
AZ. 65, 1930

عام ١٣٣٠ ق م • والظاهر أن الصلة قد كانت وثيقة بين حورمحب وبين تلك الأسرة • فقد استعمل سبتي المذكور وولده رمسيس الذى ظل فى خدمته حتى أقام من بعده أسرة الرعامسة وعرف يومئذ باسم « رمسيس الأول » •

وليس من شك فى أن ذلك قد قصد به تخليد ذكرى الرجلين من آباء الملك رمسيس • ولكنه أفاد فى شيء آخر أعظم خطرا وأبعد أثرا فى تحقيق حوادث التاريخ المصرى • فاللوح قد سجل ذكرى اليوم الرابع من آخر شهور القرن الرابع من عبادة الاله ست • وظاهر من مضمون الأثر أن رمسيس قد أراد أن يظهر الدنيا على ما كان لجده وأسرتيه من فضل فى عبادة « ست » فى ذلك المكان من شرق الدلتا • فلو طوينا القهقرى تلك القرون الأربعة لوقف بنا الزمن عند عام ١٧٣٠ ق م ، وهو العام الذى دخل الهكسوس فيه مصر • واتخذوا من أواميس عاصمة لملكهم • وبعثوا فيها عبادة الاله « ست » الذى ظلوا عليه عاكفين حتى غيب الله دولتهم من عالم الوجود • يتضح من كل ما ذكرنا أن عبادة « ست » قد كانت معروفة فى ذلك المكان منذ أيام الدولة القديمة ثم بعث بعد ذلك مرتين : مرة على أيدي الهكسوس ، ومرة أخرى على أيدي الرعامسة •

ثورة الحرية

وللحرية الجراء باب بكل يد مضرجة يدق

بطل الثورة الأولى وأسبابها :

أشرنا فى الحديث عن آثار الهكسوس الى بواكير الثورة المصرية • وقد رنا أن يكون شررها قد أخذ يتطاير منذ أيام ملك من ملوك الهكسوس يقال له « أبو فيس » وقد كان ثالث ثلاثة يدعون بهذا

الاسم ^(١) . وتشير أخبار المصريين وأحاديثهم عن الثورة وأيامها الى أن « أبو فيس » هذا قد أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم يومئذ في طيبة ويتحرش به ^(٢) . ولقد كان حاكنا المصرى يدعى « سقن رع » وكان هو الآخر ثالث ثلاثة من أهل بيته يدعون بهذا الاسم ^(٣) . وجدت أسماؤهم في قرطاس من القراطيس البردية يعرف باسم بردية Abott ^(٤) . والبردية من مخلفات محكمة طيبة العليا ، فيها محضر التحقيق في قضية نهب القبور المشهورة في وادى الملوك ، والتي وقعت حوادثها في الأسرة العشرين ؛ وفيها كشف القضاء عن أسرار تلك الجريمة الكبرى بحيث قبض على أصحابها . وانتهى التحقيق بادانتهم وبالاhtداء الى ذلك المخبأ الشهير في نواحي الدير البحرى ، حيث كان اللصوص يخفون جثث الملوك الذين نهبت قبورهم ؛ وفيها جثة ذلك البطل « سقن رع » وبها آثار الجهاد بينه ظاهرة تتمثل في ضربات أفضت الى موته ^(٥) .

وأخبار الثورة من أيام ذلك البطل معروفة في الآداب المصرية من عهد الأسرة التاسعة عشرة ^(٦) . وهى تحدثنا عما كان من أمر «أبو فيس» ملك الهكسوس ، وكيف أنه أرهق الملك المصرى الحاكم في طيبة بمطالب

(١) انظر :

Labib Pahor, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten & ihre Sturtz s. 23 ff.

(٢) توجد أخبار تلك الثورة في البردية المعروفة ببردية Sallier وقد ترجمها العالم الألماني Erman في كتابه عن الأدب المصرى

Literatur der Aegypter, Leipzig 1923.

(٣) يدعى أولهما « تاي » ويدعى الثانى « تاي الكبير » ويدعى الثالث « تاي فى » (= تاي الشجاع) ويحمل ثلاثهم اسم « سقن رع » وهكذا وردت أسماؤهم في قائمة بدير المدينة . انظر تاريخ ادوارد ماير : Ed. Mayer, Chronologie S. 78,

(٤) Peet, E. "The Great Tomb Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty". Oxford. 1930. Winlock; Tombs of the Kings of the 17 Dyn.

(٥) انظر :

Smith, The Royal Mummies, Le Caire 92.S. 4 Tafel 2&3.

(٦) بردية سايه

Pap. Sallier I. vgl. Labib Pahor ibd. S. 36 ff.

لا قبل له باحتمالها ، وكيف أنه ظل يتحداه ويجرح كرامته حتى
أثاره (١) . وأكبر الظن أن يكون « أبو فيس » قد رأى لأميرنا المصرى
من القوة والسلطان ما يجوز أن يصبح أمره خطرا على ملك الهكسوس
وتفوذهم السياسى . فأخبار الثورة فى البردية المذكورة تشير الى قوة
الحكومة الوطنية ، واتساع نفوذها ، وانتشار سلطانها بين أقاليم مصر ،
حين تزعم أن مصر كلها كانت تؤدي خراجها الى بيت طيبة . فلن
يكون غريبا بعد ذلك أن يتحرش ملك الهكسوس بأميرنا المصرى من
أجل الثراء المادى واتساع السلطان السياسى ، وأن يثور بيت طيبة ،
ويثور معه أعوانه من بيوت الصعيد للغزة الوطنية والكرامة القومية .
ثم لشيء آخر أجل خطرا ، وأبعد أثرا فى حياة الناس وفى تاريخهم السياسى
من كل ما ذكرنا أعنى من أجل العيش وتنازع البقاء .

وبين أخبار الثورة ما يشير الى أنها قامت تحت راية الدين . ولن
يبدو ذلك غريبا فى عيون أولئك الذين درسوا الحياة المصرية وتاريخها ،
وحياة الشرق وتاريخه ، بل وحياة الدنيا كلها فيما مضى من أيامها البعيدة
والقريبة . فقصص الحروب المصرية كلها قد صورت تلك الحروب فى
صور دينية ، وأجرت حوادثها تحت راية الدين وفى ركاب الآلهة .
وقصص الأسرائيليين عن حروبهم قد لبست كلها أثوابا دينية براقية .

فلا عجب بعد ذلك أن تشير الرواية عجاج هذه الحروب المصرية تحت
راية الدين ، وأن تدفع بها فى ركاب « آمون » وهو يومئذ صاحب طيبة
ومعبود الأسرة الحاكمة فيها . ثم تصور لنا « أبو فيس » ملك
الهكسوس وقد جعل من معبوده « ست بعل » آله الآلهة ورب الأرباب
يعكف على عبادته ويحرم على الناس عبادة ما عداه . ثم يدعو الملك
المصرى الى عبادته والانصراف عن آمون ، بينما يحرص ذلك الأخير على

أن يكون «آمون» رب الأرباب واله الآلهة . وهكذا يتنافس الملكان تنافسا دينيا خالصا ، فما يكاد أحدهما يظفر بصاحبه ، وما كاد أحدهما يبلغ بمعبوده ما يريد . ثم ينتهى الأمر الى تلك الحرب التى أدت الى مصرع أمير طيبة .

ولست أريد أن أنكر أثر الدين فى إثارة الحروب . فقد يكون فى ذلك شئ من الحقيقة ، وقد تقوم الحروب من أجل الدين واعلاء كلمته أحيانا . على أن الغالب أن ألوية الدين لا ترفع فى الحروب الا لتذكى نارها وتؤجج وقودها . وانما تختفى أغراض المجاهدين وأطماعهم السياسية أبدا وراء ألوية الدين .

ونحن نذكر قصة « رمسيس الأكبر » فى موقعة قادش . عندما أحيط به ، وتفرق من حوله عسكره . فوقف وحيدا فريدا ينادى ربه وأباه « آمون » ، ويستغيث به ، ويستمد منه المعونة على الشدة ، والنصر على العدو . ولما استبطأ معوته أنكر منه ذلك ، وأخذ ينجيه بذلك العتاب الشديد للين فى آن واحد .

ونحن نذكر عام الفيل ، وقصة الحرب بين اليمينيين والقرشيين ، وكيف أن حوادث الحرب قد جرت كلها تحت راية الدين . بينما اختفت من ورائها ألوية السياسة ، والطمع فى الثراء المادى والسلطان الواسع والجاه العريض . ونذكر ما كان من أمر القرشيين وهلعهم عندما أدركتهم جيوش اليمينيين تحت امرة أبرهة . ثم التجأهم الى عبد المطلب وهو يومئذ كاهن البيت وزعيم قريش . يدفعون به الى أبرهة ليرجوه أن يكف عدوانه عن البيت . ثم ينظرون فاذا عبد المطلب يسرع الى أبرهة فلا يكلمه فى أمر البيت ، وانما يسأله أن يرد عليه ابلا له كان قد سلبها أثناء زحفه على أرباض مكة . ويندهش أبرهة من أمر الرجل فيستصغر من شأنه . ويقول له « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك . وترك بيتنا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه » . فيجيب عبد المطلب « انى أنا رب الابل وان للبيت ربا سيمنعه » .

فالكفاح كما نرى لا يكون من أجل الدين ، ولا من أجل الآلهة .
وانما يكون الكفاح — مهما تلون — من أجل العيش والحرص على البقاء .
فلم تكن حروب المسلمين في عصر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من
أجل الدين ونشر دعوته واعلاء كلمته فحسب . وانما كان داعيها التوسع
في الفتح من أجل العيش الخفيض . والثراء المادى والطمع في السيادة
والسلطان العريض .

ولم تكن حروب الصليب كذلك من أجل صاحب الصليب والدفاع
عن دينه . ولا من أجل محمد والحرص على عقيدته ، وانما هى حرب بين
الشرق والغرب ونزاع على السيادة والسلطان . تذرع لها أصحاب
المسيح من أهل الغرب بأسباب دينية يستطيع التاريخ أن يبرىء ذمته
منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون .

وهكذا كانت الحرب بين المصريين والهكسوس . فلقد قام المصريون
يدفعون الأذى عن نفوسهم ، ويطلبون الحرية لحياتهم ، ويسعون لتخليص
وطنهم من الذل والرق ، ويستردون لأنفسهم حق الحياة الحرة في هذا
الوطن . واستعان بطلهم « سقنن رع » بأوليائه من بيوت الصعيد ومن
ناحية أدفو بنوع خاص . وكانت له في جهاده شريكة وسند قوى : هى
زوجه الملكة « اياح حتب » التى وجد قبرها في جبانة طيبة وهى أم خليفته
وبطلى الجهاد من بعده « كاموسى » و « أمحوسى » .

ونعود الآن الى البطل ومصرعه . فلقد بقيت جثته في قبره بجبانة
طيبة أجيالا طويلا . ثم نبش اللصوص قبره ونقلوا جثته الى ذلك المحبأ
الذى أشرنا اليه في الدير البحرى . ولما كان عام ١٨٧٥ . وقع عليها
لصوص من سكان طيبة في هذا العصر الحديث . ثم كشف أمرهم حوالى
عام ١٨٨١ . حيث نقلت جثة بطلنا مع غيرها من جثث الفراعنة الى متحف
القاهرة . ولما هيأت الدولة قبر « سعد » وأعدت لرفاته ، فكرت الحكومة
القائمة وقتئذ في نقل جثث الفراعنة واعادة دفنها الى جوار سعد . على

أن شيئا من ذلك لم يتم • لأن زعماء البلاد كانوا يختلفون في ذلك الوقت • ولم يزل خلافهم قائما حتى يومنا هذا • ويقيني أن دفن جثث الفراعنة التي احتارت بين أيام الزمن فلا تكاد تستقر ، أهون على الأيام من اتفاق زعمائنا المصريين ألف مرة ومرة •

وكان العلم قد اتخذ سبيله الى أجداث الفراعنة منذ نقلها الى المتحف فقدرت أعمارهم ، وعرفت الأسباب التي أدت الى موتهم ، وفحصت جثة بطل الثورة فإذا سنه يوم مصرعه لا تكاد تعدو أربعين عاما • ومن المرجح أن مصرعه قد كان في ميدان القتال وبين عراك الأسنة • وجائز أن يكون موته نتيجة لمؤامرة سياسية دبرها العدو ومن والاه من الخونة المصريين •

ومن آثار مقتله طعنات ثلاث في فكه الأيسر • سقط بعدها فاقد الوعي ، حيث أهوى عليه القاتل بطعنتين أخريين ، أصابت أحدهما ما فوق الحاجب الأيسر ، بينما شقت الأخرى عظام رأسه ولما استيقن أعوانه من موته ، أسرعوا اليه فلقوه بلقائف من كتان ، ثم وضعوه في صندوق من خشب مموه بالذهب وأودعوه قبره في جبانة طيبة •

وظاهر من جثته أنه كان طويلا في غير اسراف ، معتدل القامة ، مشوق القد • ولم يكن له في وجهة جمال ممتاز ، مستقيم الأنف عريض أصله ، بارز عظام الخدين ، صغير الفم مستديرة ، وفي لحيته وعوارضه أصول من الشعر تشير الى أن الأقدار قد زينته للقاء ربه فمن المرجح أن يكون قد حلق شعره في صبيحة يوم مصرعه • ومهما يكن من شيء ، فالأمر الذي لاشك فيه مطلقا هو أن ذلك البطل قد لقي حتفه في سبيل هذا الوطن • فاستحق من بعد ذلك تقدير الوطن ، واحتل من سجل التاريخ صفحة من ذهب لا يستحقها غير أمثاله من أبطال الوطنية في هذه الدنيا • والواقع أن أيسر النظر في حياة ذلك الرجل تظهرنا على أنه كان علما من أعجاء أعلام زمانه ، علما وطنيا رائعا قل أن تعرف الدنيا

نظيره ، بناء الله أكرم بناء ، ثم صنع له أخلاقه من نسيج طيب ، كله وجدان واقدام وإيمان وفداء ، فلا ينال منه عصف الريح وطالما اشتد عصفها في أيامه ، ولم تنل منه حفيفة عدو ، وما كان أكثر أعدائه في هذا الوادي ؛ ولا مقالة حاسد وقد كان حساده يققون له بالمرصاد ، ويتربصون به الدوائر ، ويحاولون أن يثيروه ، ويخرجوه من عرينه ليفسدوا عليه حياته ويهدموا عليه بنيانه . ولكن هيهات فإن فيه سرا علويا يكفل له ولأمثاله العزة والكرامة في هذه الدنيا . هيهات وهو الذي وهب نفسه لحياة الجهاد والتضحية والايثار . ثم كفل لاسمه الخلود في ضمائر الأيام وقلوب الأجيال . وكفانا منه أنه ورث الأجيال من بعده مثلا نبيلًا ؛ وأثرا جليلا ؛ ثم علمهم كيف يهون الصعب في سبيل الوطن ، وتبذل الحياة في سبيل الخلود . وقد كان يستطيع كغيره من الحكام المصريين الذين والوا الهكسوس أن يجيب داعي المستعمر ، فيخلد الى حياة الطمأنينة والدعة والعيش الخفيض . ولو قد فعل لأغدق عليه الزمن من أسباب الرفاهية والرخاء المادي ما لا يحصى ولا يوصف ، ولجنب نفسه وأسرته شرور الحروب وأهوالها ، وتجنب ذلك الصدام العنيف الذي أودى بحياته وهو في ريعان الصبا وشرخ الشباب . ولكن الرجل خلق ليكون بطلا مجاهدا بل ليكون مثلا رفيعا في جهاده ، في مرحلة كانت البلاد فيها أحوج ما تكون الى التضحية . والى تجديد المثل العليا بعد نومة طال أمدها فامتد خمسة أجيال كاملة . وكانت مشيئة الله قد أرادت لهذا الوطن المصري ، بل للشرق العربي كله ، نشورا بعد طول خمول ، ونشاطا بعد طول انكماش . ولم تكن صيحة الرجل في قلب طيبة ولا ماشهده الزمن من احداث جسام تلعبها الأيام على مسرح هذا الشرق العربي ، غير نداء لداعي الشرق المستغيث تهدده خطوات ذلك الخطر الداهم تدفعه الأيام في ركاب الحشيين في زحفه الماكر الخادع على المطمئن الوادع ، وصولة الباطل المسلح على الحق الأعزل ؛ بل صولة

القوى الجبار الواسع الحيلة والبطش على شعوب أضعفها اختلاف الزعماء وكثرة الشيع والأحزاب • كانت عواصف الخطر تهب على أقاليم الشرق من بعد قريب • وكان حكام الهكسوس يحاولون السيطرة على أقاليم الشرق ؛ فيرهقونها ولا يكادون يبلغون من أمرهم شيئا • وإذا الله يسطر بيده الكريمة فى أفق هذا الشرق العربى بحروف من نور آيات من نصر جعل أولها جميعا لذلك البطل المصرى • فيها العزة والنجاة للشرق • وفيها المجد الرائع لمصر الخالدة • وإذا نظام يسود الشرق العربى كله من وراء ذلك تحت لواء مصر ، أشبه ما يكون بتلك الوحدة العربية التى نادى بها أقاليم الشرق وعقدت لواءها لمصر فى ذلك العصر الحديث • وكتب الله لذلك البطل المصرى أن يضع فى بناء تلك النهضة حجر الأساس بحياته الغالية ، وأن يسجل على أعلامها أروع آيات البطولة والتضحية بدمه الزكى الكريم • وأصبح من الحق على أبناء الشرق جميعا أن يفخروا بسيرة ذلك البطل العظيم ، وأن ينظروا فيها كلما جدالجد وتخرج الأمر • وبعد فانى أشعر أنه من الحق على وأنا أسجل تاريخ مصر أن أوفى شخصية ذلك البطل حقها من الدرس ، ولكنى أعترف بأننى لم أرزق من قوة الوصف وبيان المنطق والقدرة على دراسة الناس وتحليل شخصياتهم ما يمكننى من ذلك • فأنا أرى فى نهاية الأمر أن شخصية الرجل أكرم وأرفع من أن يبلغها الوصف أو يجليها الدرس •

بطل الثورة الثانى

إذا مات منا سيد قام آخر . . . قؤول لما قال الكرام فعول
وما أكاد أجرى قلمى لاستئناف الحديث عن الثورة، حتى يحضرنى ذلك الشعر العربى فأسجله فخورا بموقف أولئك الأبطال من أجدادنا. لأنه ينطبق تماما على حال المصريين يومئذ • وكان الشاعر العربى لم ينطق بهذا الشعر

الا ليرسم به صورة من شعور المصريين واحساسهم في ذلك الوقت البعيد من عهود مصر . فلقد حمل «كاموسى» لواء الثورة بعد سلفه ، وقصة ذلك معروفة على أثر من آثار المصريين تتمثل في لوح من ألواح أبناء المدارس^(١) . يعرف في كتب التاريخ «بلوح كارنارفون»^(٢) . تشير أخباره الى أن الملك كاموسى قد ضاق بنفوذ الهكسوس في مصر ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الشمال . وضاق أيضا بتقدم النوبيين ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الجنوب ؛ وآية ذلك أن يشتد به الضيق حتى يقلق باله ويقض مضجعه . فيدعو رجال بلاطه وأمراء جنده ليشاورهم في الأمر . وأقبل الملأ من أولئك وهؤلاء مهللين ومكبرين يملأون ساحة العرش من حول مليكهم ، ويرددون الدعاء له والاشادة بمجده . ويتغنون بشجاعته ، ويفاخرون ببأسه وقوته ، ويمجدون سلطانه الواسع ، ونفوذه العريض . واذا هو يقطع عليهم صلاتهم ، وكانت كلها ملقا ونفاقا فيقول : « وددت لو أعرف ماذا تجدى على شجاعتي^(٣) . فهذا أمير يجلس في أواريس . وهذا آخر يجلس في النوبة . وها أنا قد أحصرت بين اسوى ونوبى ، وقد أخذ كلاهما يقاسمنى أرض مصر . وهؤلاء البدو

(١) يرجع هذا الأثر الى ما بعد أيام الهكسوس . وأكبر الظن أن سيرة البطل قد احتلت بين الآداب المصرية مكاناً رفيعاً ، وأصبح لزاماً على الأجيال أن تدرسها في مدارس البلاد المختلفة . انظر :

Gardiner, A. & Gunn B. The Defeat of the Hyksos bei Kamose, The Carnarvon Tablet, No. I in journal of Egyptian Archeology III. (1916) p. 95; & V. (1918) 36. ff.

(٢) سمي اللوح بهذا الاسم لأنه آل إلى مجموعة يملكها اللورد كارنارفون . وكان من هواة الآثار المصرية . وهو الذى تولى الاتفاق على تلك البعثة التى تقبعت أعواماً طويلة في جبانة طيبة واهتدت أخيراً إلى الكشف عن قبر توت عنخ آمون عام ١٩٣٣

(٣) كان الملك كامس شجاعاً ما في ذلك شك . ولعل في حديثه هذا وإقدامه على استئناف الجهاد ضد الهكسوس ما ينهض دليلاً واضحاً لذلك . ولقد يظهر أنه كان يعرف ذلك لنفسه فهو قد سجل الإشارة إلى ذلك على بعض سلاحه فكان يضع أمام صورته سبعا يشير إلى بطشه وشجاعته .

(الهكسوس) قد توغلوا في البلاد وما كنت أقدر أن يصلوا الى منف ولكنهم أدركوا الأشمونين » •

وظاهر من رد القوم أنهم كانوا يكرهون الحرب ، ويؤثرون العافية •
لأنهم زعموا للملك أن سلطان العدو وان امتد الى القوصية (ما بين
أشمونين وأسيوط) لا يؤذى سلطانه ولا يعكر عليهم مافي حياتهم من
صفو • فبلادهم ما زالت آمنة ورخاء العيش مازال يغمرهم • وأنعامهم
ما زالت طليقة ترعى في أرض الدلتا • والعلف ما زال يصل الى مواشيهم
من محاصيل الشمال • فليبق العدو في حل من شمال البلاد حيث يقيم •
وللمصريين بعد ذلك ملك مصر^(١)

على أن الملك قد ضاق بهذا القول ، وسخط من رأى أصحابه ،
وكرده منهم ذلك الضعف المنكر ، وأقسم ليخرجن الى العدو فيقرن بطنه •
لأنه يريد أن يحرر مصر ويضرب الهكسوس • ثم يؤيد عزمه هذا بذلك
النداء الحار :

« ألا فليعلم أهل طيبة أن كاموسى سوف ينقذ مصر ، ويحفظها من
مهاوى الهلاك • لسوف أخرج الى العدو بأمر آمون ، فهو وحده الهادى
سبيل الرشاد » •

خرج كاموسى يحمل لواء الجهاد بعد أن جمع جيشه من خيرة أبناء
الصعيد ، وضم اليهم بعض عساكر الحدود من رجال النوبة ، وأخذ يمون
جيشه على الطريق من البلاد الواقعة على شواطئ النيل • ثم أخذ طريقه
نحو الشمال ، حتى اذا بلغ نفروسي^(٢) حاصر أميرها المدعو « تتى بن بى »
وكان من أولياء الهكسوس • فما زال به حتى غلبه على أمره ثم خرب
مدينته ونهب أرزاقها^(٣) • ثم غادرها نحو الشمال • وغالب الظن أن

(١) هكذا ورد خبر ذلك في لوح كارنارنون Journal O.E.A. III & V.

(٢) نفروسي : بلدة كانت تقع في شمال أسيوط ولا يمكن تحديد مكانها تماما .

(٣) هنا ينقطع الحديث لأن الأثر لم يستطع ادخار بقيته .

يكون قد بلغ في زحفه حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الشمال ثم خلصها جميعاً من حكم الهكسوس .

ولما بلغ ذلك ، فكر في أقاليم الجنوب ورأى خطر النوبيين يهددها . فسار الى أقاليم النوبة ، وأخضع الثائرين من أهلها . وسجل ذلك على صخور تشقا (ما بين الدر وأبو سنبل) ^(١)

وبعد فتلك سيرة البطل الثانى من أبطال الثورة المصرية كما سجلتها آثار المصريين . تكاد حوادثها تملأ الوادى فخراً منذ قومة البطل الى يومنا هذا . ولست أخفى على القارىء أننى لأؤكد أغادر تلك السيرة دون أن أتذوق لحواشيها بعض المرارة ، ودون أن أتصور ما نزل بنفس ذلك البطل الكريم من آلام محرقة ملأت قلبه فأذته وأضنته ، ولعلها عجلت بوفاته فودع الدنيا ولما يبلغ من آماله بعض ما أراد . فليس أبغض الى نفس الكريم من أن يوجد بنفسه فيخذه الناس ، وليس ألم لنفس الحر من أن يقدمها ضحية وقربانا لوطنه ولا يسمع فى نفوس أنصاره لذلك صدى أو يحس له أثراً .

بمثل هذه الروح السامية يتوجع ملك مصر من حال البلاد وما أصابها من شرور الاستعمار وهوان المذلة . وبمثل هذه النفس الكبيرة الأبية يأبى ذلك الحاكم الشجاع أن يعيش وطنه تحت راية الاستعمار . وبمثل هذه الديموقراطية الصحيحة المحبوبة يدعو ملك مصر من دعا من أمراء جنده ورجال بلاطه ليسترشد برأيهم ويهتدى بهديهم . وليتدبر معهم أمر البلاد وتخليصها من عار الضعف وهوان المذلة .

وبمثل تلك النفوس القانعة الضعيفة الذليلة يخذل الناس مليكهم فى أشد المواقف وأعظمها خطراً على حياة الأمة المصرية . بمثل هذا الضعف

(١) وجد اسمه على صخرة هناك فوق اسم أخيه وخليفته أحس . على أننا لا نكاد نحقق اخوة الملكين تحقيقاً يبعد عن الشك .

المخجل يرضى رجال البلاط عن حياة الذل ، ويكتفون منها بذلك الرخاء المادى الذى جنى على نفوس المصريين فأذلها واستعبدها • ويا طالما أذلها واستعبدها فى مختلف عصور التاريخ • استعبدت أوروبا هذا الوطن المصرى بعد أن اشترى ساستها ومرابوها وزراء الدولة بالمال على عهد اسماعيل • وليس عصر الذهب المسموم من أيام كرومر بعيد • وليس بين المصريين من لا يذكر ذلك العهد البغيض الذى نكب فيه الاستعمار الأمة المصرية فقتلها أو كاد • وأصاب العقل المصرى فأضعفه وأذله ، وأصاب النفس المصرية فحطمها وجعلها ترضى بصغائر الأمور •

وبعد فانى أعذر الى القارىء الكريم حين أتقتل به هذه النقلة البعيدة • فأنا لا أكاد أصور مأساة البلاد قبل ٣٧ قرنا دون أن أتمثل مأساتها الحديثة قبل ستين عاما • فما زالت ذكرى الاحتلال المرذول من أواخر القرن الماضى تطالعا بمثل تلك الشخصيات القانعة الدليلة الحقيرة • وما أظن أحدا من أبناء هذا الجيل قد نسى أولئك الذين مهدوا السبيل للمحتلين، وأعانوهم بعد ذلك على رفع راية الاحتلال، فاستحقوا بذلك تقدير الانجليز ، وأصبحوا لهم عمالا مأجورين وخداما غير مشكورين • وأغدقت عليهم الثروات الضخمة ، وفازوا بأعلى الرتب والمناصب • ونسى الشعب المصرى كل هذا ، لأن الدولة لا تتيح له التفكير فى مثل هذه الأمور ، بعد أن سلطت عليه جيوش الفقر والمرض والجهل ، فأحاطت به وضيقته عليه فما يكاد يفر منها الا الى الموت •

ونعود الآن الى بطلنا الثانى لنسمع حديثه عن الحرب اذ يقول : « واتخذت طريقى الى الشمال على متن النهر لأرد الاسيويين بأمر آمون واندفع من أمامى جيشى الشجاع اندفاع اللهب من سعيير النار ودارت رحى الحرب حول نفروسى من مدائن مصر الوسطى ، وعليها حاكم من أولياء الهكسوس • فلم أترك له فرصة الافلات ولم أزل حتى رددت العدو وأمضيت ليلتى مغتبطا على احدى سفائى • ولما كان اليوم الثانى حومت فوق عدوى كالصقر ، وما كاد وقت الصباح يتولى حتى كنت قد هدمت

أسواره وحصونه • وقتلت رجاله ، ثم سقت زوجه أسيرة الى الشاطى •
وعاد عساكرى كالأسود ، فرحين بما غنموا من رجال وأنعام وأدهان وعسل
وأخذوا بعد ذلك يقسمون بينهم الغنائم » •

والى هذا الحد ينقطع حديث الملك لأن الأثر لم يستطع ادخار ما بقى
منه • على أنه لا يستبعد مطلقا أن يكون « كاموسى » قد استمر فى زحفه
حتى طهر الأقاليم الوسطى من شمال أسيوط حتى منف • ونستطيع بعد
ذلك أن نقدر أن الهكسوس قد ارتدوا الى الشمال واعتصموا بحاضرة
ملكهم « أورائس » ومن حولها كانت خواتيم تلك الحروب على أرض
هذا الوادى ، التى انتهت باخراج الهكسوس • الا أن كاموسى لم يشهد
من ذلك شيئا ، لأن المنية قد عاجلته ولما يبلغ من تحقيق آماله كل
ما أراد •

أحمس الأول ونصيبه من الجهاد

رأينا فى سيرة الملك كاموسى • كيف أنه كان عظيم الأمل فى النصر ،
صادق العزم على مواصلة الجهاد ، قوى الايمان بذلك الظفر الذى يحقق
أمله فى الحرية والاستقلال • على أن الله قد شاء — فيما يظهر — أن
يقسم آيات النصر والبطولة بين أفراد البيت جميعا ، وأن يوزع الشرف
بينهم توزيعا عادلا ؛ راعى فيه أمراء البيت رجالا ونساء • فكان من نصيب
أولهم أن رفع راية الجهاد ثم سقط فى فجره بعد أن رسم له الطريق
السوى بدمه العالى • وكان من نصيب الثانى أن يحمل الراية بعد
سلفه ، ثم يمضى وجهه بعزيمة البطل وايمان النبى • وظل يقاتل حتى رد
الهكسوس الى وكرهم فى أطراف الشمال من أرض الوادى ، ولم يبق أمامه
بعد ذلك الا أن يسوق العدو من وراء الحدود المصرية الى أرض الميعاد •
ولكن جاء أجله فكتب الله ذلك لأخيه الصغير ، وخليفته من بعده :
الملك أحمس الأول • فسطر فى سجل الجهاد خاتمة الكتاب ، وضرب

العدو ضربة تركته من بعدها صريعا يعانى آلام الاحتضار ليودع على أثرها دنيا الحكم والسياسة والحرب والنصر والهزيمة الى يوم القيامة . وسهمت أميرة هذا البيت الملكية «اياح حتب» فى كل ذلك . فهمى قد جاهدت مع زوجها ، وجاهدت الى جانب خليفته من بعده كاموسى وأحموسى . وليس يكفى التاريخ أن يجعل منها أم بطلى الجهاد من بيت طيبة ، بل من الحق عليه أن يجعل منها أم المصريين جميعا . تسلم أحموسى زمام الحرب بعد وفاة سلفه . وحمل لواءها مندفعاً نحو الشمال ، وأخبار القتال فى أيامه معروفة ؛ دونها أحد رجاله ويدعى أحموسى أيضا فى قبر له بجبانة الكاب . وكان أحموسى هذا أميرا لاحدى سفائن أسطول النقل الحربى فى ذلك العهد ، ورث ميله الى أعمال الحرب والقتال عن أبيه الذى كان جنديا أيام الملك «سقن رع» . وورث منصب أبيه فى أمانة سفينة يقال لها «الفحل البرى» . حدثنا ذلك القائد أنه اشترك فى حروب المصريين ضد الهكسوس . وأن الملك قد أعجب به وأظهر من شجاعته وحسن تصويبه ، فرقاه الى أمانة سفينة تدعى « المشرق فى منف » ؛ حارب فيها على المياه المحيطة بأواريس والقريبة منها . فقتل وغنم مما حمل الملك على مكافأته بالذهب ^(١) أكثر من مرة . ثم يحدثنا عن سقوط « أواريس » وهى آخر ملاجئ الهكسوس فى هذا الوادى . والظاهر أن القتال لم يشتد بين المصريين والهكسوس . وانما اضطرت قوات الهكسوس الى مغادرة أواريس بعد تضيق الحصار عليها . فاتخذوا طريقهم فى الصحراء الشرقية ، باحثين عمن يمكن محالفتهم من أمراء آسيا . على أن الملك أحموسى قد تبعهم بجيشه حتى لحق بهم عند

(١) كان ملوك مصر يكافئون الأبطال من أمراء عساكرهم بالذهب ، وكانوا يسمونه «ذهب البطولة» تارة على هيئة حلقات عريضة مستديرة . وأخرى على هيئة الذباب . وأكبر ظنى أن المصريين قد غابوا ما فى الذباب من طبيعة الإلحاح ، فهو لا يطرد حتى يعود . والغالب أن يكون الناس فى تلك العهود قد كانوا يتمنون لمساكرهم أن يرزقوا طبيعة الإلحاح فلا يحملون على فرار حتى يعودوا الى الكر .

حصن في جنوب فلسطين يقال له « شاروهين » كانوا قد لجأوا اليه ،
وتحصنوا به . فضيق عليهم الحصار ثلاثة أعوام كاملة حتى اضطروا الى
الجلء عن الحصن . وشتت الله شملهم في أقاليم الشرق .

هذا وبين أخبار « مانتون » التي نقلها الكاتب اليهودي يوسف
مايحدثنا عن اخراج الهكسوس من مصر . واذا كان من الحق علينا أن
تنظر في أخبار ذلك الكاتب ، فمن حقنا أيضا أن ننظر فيها بعين الشك
والريبة . فهو كأكثر كتاب زمانه لم يتحر الصدق والواقع . وكان فوق
ذلك يهوديا ؛ وقف يدافع عن اليهود ، ويدفع عنهم ما رماهم به
« أبيون » النحو السكندري . فاتخذ من حطام « مانتون » تكئة
للدفاع عن جنسه . ثم حرف ما ثقل الحاجة في نفسه . وأكبر الظن أنه
حاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود ، ليجعل من قومه أبطالاً
فاتحين لاعراة لاجئين . وجعل انتصار المصريين على الهكسوس وجلء
هؤلاء عن مصر على أيدي التحامسة . وعد من رجال الجيش المصري
الذين ضربوا الحصار حول حاضرة الهكسوس مائتين وأربعين ألف
(٢٤٠٠٠٠) محارب . وحاول أن يصور عجزهم عن اقتحام حصون
الهكسوس . ثم أجرى بين المصريين والهكسوس مناورات ومشاورات
انتهت بعقد معاهدة بين الفريقين ، يغادر الهكسوس بمقتضاها مصر دون
أن يمسوا بسوء ، لينزلوا حيث يشاءون من أقاليم الشرق القريب . وهكذا
غادر الهكسوس مصر الى سوريا عن طريق الصحراء بعثادهم وقواتهم
التي لا تقل في رأيه عن مائتين وأربعين ألف نسمة .

ومهما يكن من شيء ، فالأمر الذي لا شك فيه مطلقا هو أن
الهكسوس قد غادروا مصر في عهد « أمحوسى الأول » الذي يعده التاريخ
رأس الأسرة الثامنة عشرة من ناحية ، وواضع حجر الأساس في بناء
الامبراطورية المصرية من ناحية أخرى .
ولم يكد أمحوسى ينتهى من أمر الهكسوس ، حتى دعاه داعى الحرب

الى جنوب الوادى • فكر راجعا الى أقاليم النوبة وكان أهلها قد استغلوا
محنة المصريين أيام الهكسوس فانسلكوا من بناء الدولة المصرية وانشقوا
على المصريين ، وخربوا حصونهم ومنازلهم فى أقاليم النوبة •
حدثنا أمحوسى أمير البحر • أنه رافق الملك فى حملته على بلاد النوبة
ثم عن ضرب المارقين من زعمائها ، وعن اشتركة فى القتال وحسن بلائه فيه ،
مما جعل الملك يكافئه بالذهب والعييد مرة أخرى •
ولما انتهى الملك من حروب النوبة عاد الى مصر على الرأس مرفوع الجبين
وبيده لواء الحرية فرفعه على هام طيبة ، واتخذ عرشه فى قلبها ، وجعل
منها عاصمة للدولة المصرية • وهكذا أشرقت عليها الشمس من جديد •
وتطلعت طيبة الى الأفق البعيد ترقب حظها تحذوه الأيام فى ركاب المجد
من بعد قريب •

صدى حكم الهكسوس فى سماع الزمن وأثره فى توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل وفى أقاليم الشرق القريب

سقطت حكومة الهكسوس ، وغاب سلطانهم من عالم الوجود ، بعد
أن خيم فى مصر قرنا ونصف قرن ، متخذاً من شمال الدلتا الشرقى قاعدة
لعرشهم • ولقد كان سلطانهم — أكبر الظن — واسعا عظيما • فهم قد
جعلوا حاضرتهم من مصر فى شرق الدلتا ، مابين الصحراء والوادى ،
ليكونوا من صحراء العرب — وهى طريقهم الى بقية أملاكهم فى
الشرق الأدنى — على بعد يسير •

ولعل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن العرب عندما فتحوا مصر ، فأقاموا
حاضرتهم على شاطئ النيل الأيسر ^(١) من تجاه منف • وفى المكان

(١) قد يبدو ذلك التعبير غريباً فى عين القارىء ، لأنى جعلت القسطاط على شاطئ • =

المعروف باسم الفسطاط . والواقع أن العرب لم يمدوا أنفسهم الى مصر ،
الا بعد أن اتسع ملكهم في الشرق . واتجهت أيامهم في ركب التاريخ
الذى أخذ يسير بالدولة العربية مسرعا فيحدوها الى عرش الامبراطورية
الاسلامية .

ومن المرجح أن يكون الهكسوس قد سيطروا على كثير من أقطار
الشرق القريب قبل أن يمتد سلطانهم فيغمر هذا الوادى المصرى ، وان
ملكهم في أول عهدهم بالحكم والسلطان قد كان واسع المدى عريض
الآفاق ، ولن يبدو ذلك غريبا ولا عسيرا أيضا اذا مذكرنا حال أقاليم
الشرق واضطرابها بالفتن الداخلية والخارجية من جراء هجرة الشعوب
الآرية التى وهنت عزيمة الشرق ، وتصورنا دفعة الهكسوس بخيولهم
وأسلحتهم وسط أقاليم الشرق المضطربة .

وبين ألقاب حكام الهكسوس ما يشير الى اتساع ملكهم ، ولعل
سلطانهم أن يكون قد بلغ مداه أيام مليكهم « خيان » . فلقد تعدت
شهرته وادى النيل ، ووجدت آثاره في سوريا وفلسطين وبابل وبعض
جزائر بحر الروم . معنى ذلك أن نفوذ الهكسوس أو امتيازهم السياسى
على الأقل، قد أطل الشرق وأظل معه جزائر البحر . فان اسم مليكهم خيان قد
وجد على قطعة من رخام في جدار أحد القصور من « كنوسوس » عاصمة
جزيرة كريت .

كيف توثقت العلاقات بين مصر وكريت

ويستطيع المؤرخ بعد ذلك أن يدرك السر فى تلك الصلات التى
اشتدت أواصرها وتوثقت عراها بين أهل كريت وبين أبطال الحرية

= النيل الأيسر . وأنا إنما قلت ذلك جرياً على عادة السلف من سكان هذا الوادى . فهم قد
نظروا إلى منبع النيل وهو معين البر وخالق الحياة المصرية جميعاً . فوقع الغرب على عيניהم فأسموه
« معين » وغدا الشرق بعد ذلك شاطئ الوادى الأيسر .

من أمراء طيبة ، ابان ثورة الاستقلال التى أشعلوا نارها حول ملك
الهكسوس . وليس عجيبا فى حوادث التاريخ بعد ذلك أن يقوم أهل
جزائر البحر بامداد المصريين برجال الحرب وسلاحها عندما أخذوا
يديرون رحاها على عرش الرعاة .

كذلك لن يصبح من نسج الخيال وصرفه ، ما فكر فيه بعض المؤرخين
من أن الملكة « أياح حتب » روح ثورة الاستقلال ، وزوجة بطلها
الأول ، وأم بطلها الأخيرين ، بل أم المصريين جميعا ، قد تزوجت من ملك
جزيرة كريت . فأصحاب هذا رأى انما يعتمدون فى زعمهم على أن
تلك الملكة قد كانت تدعى « ربة الجزائر » . وهى لن تكون فى نظرهم
خليقة بهذا اللقب الا اذا كانت تحت من يقوم على حكم الجزائر . على أنى
لا أكاد أرى فى حكم المروءة ولا فى حكم الانسانية ، والاعتراف بالجليل ،
وتمجيد البطولة والاعجاب بالأبطال ، بل ولا فى حكم سياسة الزمن
يومئذ ، ما يمنع من أن تحمل بطلة كهذه لقب « ربة الجزائر » دون أن تكون
زوجا « لرب الجزائر » . بل اننى لا أستبعد مطلقا أن يكون أهل الجزائر
أنفسهم هم الذين خلعوا على تلك البطلة ذلك اللقب مخلصين معجبين .
ولا غرابة فى ذلك فهم ولا شك قد كرهوا حكم الهكسوس وضاقوا به
كما ضاق به المصريون . وهم قد كانوا ولا شك تواقين الى الحرية ،
نزاعين الى الاستقلال ، وكانوا والمصريين سواء فى نكبة الاستعمار
وهو ان المذلة . ثم وجدوا فى المصريين أقوى معين على الخلاص من رق
الاحتلال . فسهموا بالرجال والسلاح فى كسر شوكة الهكسوس
والافلات من قيودهم الثقيلة ، ورأوا جهود بطلة المصريين موفقة فى هذه
السبيل ، وعرفوا قدرها فى نفوس المصريين ، ومكانها فى المجتمع المصرى ،
وتقدیس الشعب لذاتها الكريمة ؛ فاذا غدا من حقها بعد ذلك أن تحمل كل
صفات البطولة وألقاب الشریف والتعظيم ؛ فقد أصبح من دواعى
التقدير والاعتراف بالفضل أن يخلعوا عليها ذلك اللقب دون أن تكون
زوجا لأمرهم .

ولاء المصريين لبطل الاستقلال

سكرو المصريون بنشوة الظفر بعد عناء الجهاد ، وتذوقوا حلاوة الحرية بعد مرارة الذل . وفازوا بنعمة الاستقلال وجلاله بعد أن أمسكتهم قيود الاستعمار خمسة أجيال كاملة . فأخذوا يشيدون بمفاخر ذلك البطل الذى رزقهم نعمة الحرية ، ورد عليهم جلال الاستقلال ، وألقى عليهم وعلى وطنهم أردية من العزة والكرامة ، وباتوا يحفظون لبطل استقلالهم أصدق الشكر وأجل الولاء ، ويدخرون له ولاهل بيته من أبطال الحرية أحسن الذكر . ومن المرجح أن يكونوا قد رددوا فى ذلك كله صدى ذلك التقدير عند أهل الجزائر أيضا .

ولعل حال مصر وماجاورها من الأقاليم أيام الهكسوس قد كانت أشبه شئ بحال مصر ومن جاورها من شعوب البحر الأبيض أيام سلطان الرومان . ولعل نظرة جيران مصر الى أبطال الحرية من أمراء المصريين قد كانت أشبه شئ بنظرة المصريين ومن جاورهم الى العرب الذين خلصوا الناس من حكم الطاغوت الرومانى . وأشعروهم برحمة الانسانية وبرها .

ازدياد الصلة بين مصر وكريت وأثر كل منهما فى حياة الأخرى

وتزداد الصلة بين مصر وكريت ، وتتأثر كل منهما بالأخرى ، ويبدو ذلك الأثر واضحا قويا فى بعض نواحي الحضارة والفنون المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة فى بعض صناعة السلاح والحلى من أيام «أحموسى وكاموسى» وأمهما الملكة «أياح حتب» ابان الثورة على الهكسوس .
فهذا خنجر للملك أحموسى ، يحمل اسمه بحروف من ذهب ، ومن حول ذلك رسوم تمثل بعض طوائف الوحش فى طبيعة جبلية على نحو ما تمثل الوحوش فى فنون جزيرة كريت ، وعلى نحو ما وجد على بعض السلاح فى تلك البقاع .

والشيء الذى لاشك فيه هو أن خنجر الملك قد صنع فى مصر ، وصاغه صانع مصرى • ولكنه نحاً فى صياغته نحوا لم يكن مألوفاً فى مصر من قبل ذلك العهد • وفى ذلك من غير شك أثر من ارتباط سكان جزائر البحر بالمصريين ارتباطاً أقل مما يمكن أن يقال فيه أنه كان وثيقاً • فسلح الجزائر قد انتشر فى مصر إبان ثورة الاستقلال • وشواهد تأثر الفنون المصرية بفنون جزائر البحر لم تقتصر على ما قدمنا من مثل ، وإنما تعدته الى أمثلة أخرى • وكما تأثر الصانع المصرى بفنون جزائر البحر ، بدا أثر الفن المصرى واضحاً كذلك فى فنون تلك البقاع •

فلقد وجد فى قبر أمير من أمراء الجزائر مقبض لخنجر ، صاغه صانع من أهل الجزائر ، ونحاً فى صياغته نحوا مصرياً واضحاً • فمثل فى رسومه بعض نواحي الطبيعة فى وادى النيل ؛ مثل فيه أسماك النهر وما ينبت على شاطئيه من نبات البردى وأحراشه • وصور فى تلك الأحراش ما كان يأوى إليها من هرة برية وهى تطارد فيه بعض الطير •

فراغة الوادى يستخدمون جنوداً من جزائر البحر

وتأخذ الصلة بين البلدين فى الزيادة ، فما نكاد نبلى أيام « أمنوفيس الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حتى تحدثنا بعض الوثائق التاريخية من رسائل العمارة عن استخدام جنود من الشردانيين فى احتلال بعض الأقاليم السورية • وما تجيء أيام « رمسيس الثانى » من ملوك الأسرة التاسعة عشرة حتى يصبح استخدام أولئك الجنود فى الجيش المصرى أمراً عادياً •

وأكبر الظن أن يكون استخدام الجنود من جزائر البحر قد عرف منذ حرب الاستقلال وقومة الامبراطورية المصرية من أوائل أيام الدولة الحديثة • بل ليس يستبعد أن يكون بطل الاستقلال قد استخدم بعضهم فى حروبه ضد الهكسوس • فيكون مثله فى ذلك مثل « أبسماتيك » عندما

استعان بجنود من الأيونين ، أرسلهم اليه ملك ليديا أيام تحرير البلاد من نير الاشوريين • وكان أولئك الجنود من جزائر البحر • وكان سلاحهم الخنجر ، بينما كان سلاح المشاة من عساكر المصريين الرمح والفاس • وكانت دروع جند الجزائر مستديرة • وعلى رؤوسهم خوذات ذات قرون تشبه الأهلة • وكانوا مردا ذوى وجوه مستطيلة وتقاطيع حادة وقامات مديدة • وكان موطنهم جزائر بحر ايجه • وغالب الظن أن يكونوا من جزيرة سردينيا •

أثر الهكسوس فى نهضة مصر أيام الدولة الحديثة

من رأى المؤرخ الألمانى العظيم « ادوارد ماير » ، أن حكام الهكسوس قد هاجروا من سوريا الى وادى النيل ليتخذوا من شماله قاعدة لحكمهم حينما ضاقت عليهم الأرض فى أقاليم الشرق القريب بسبب هجرة الآريين التى وقعت فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح • ولعل رأيه فى ذلك أن يكون أصدق آراء المؤرخين جميعا • ولقد كان لهجرة تلك القبائل الآرية أثرها الخطير فى توجيه سياسة الأقاليم الاسيوية فى بلاد الشرق الأدنى من ناحية وفى تغيير وجه الدنيا على ضفاف النيل من ناحية أخرى • ولعل أخطر آثار تلك الهجرة أنها غيرت مجرى السياسة فى الشرق • وغيرت فوق ذلك مستقبل الحرب يومئذ فى هذه الدنيا • فهى قد سافت الخيل فى ركاب المهاجرين الى بلاد الشرق • ومن المرجح أن يكون البابليون قد عرفوا استخدام الخيل فى القرن التاسع عشر قبل مولد المسيح أو بعد ذلك بوقت قصير • ثم شاع استخدامها على أثر ذلك فى الأقاليم السورية تقليدا للآريين والحيشين • ثم بلغت الخيل مصر من وراء ذلك بعد أن شاع استخدامها بين قبائل البادية من الأعراب • ويكاد اسم الحصان على غرابة أصله واشتقاقه أن يكون واحدا فى أقاليم الشرق المختلفة • فلا يكاد يختلف الا بمقدار ما يقوم بين لهجات القبائل والأقاليم المختلفة من فروق

يسيرة • فاسمه فى لغات بابل وآشور « سىسو » وفى لغة كنعان
والعبرانيين « صوص » وفى لغة المصريين « سسمة » •

وظلت شعوب الشرق قرونا طويلة لاتعرف ركوب الخيل على
نحو ما نركبها اليوم الا فى حالات نادرة جدا • وانما كانت تستخدم فى
جر عجلات الحرب • وغالب الظن أن يكون الآريون هم أول من استخدم
تلك العجلات ، وعنهم أخذ الاسويون من شعوب الشرق القريب • ومن
تلك الأقاليم دخل بها الهكسوس الى مصر عند ما أغاروا عليها حوالى
عام ١٧٣٠ قبل مولد المسيح • فاذا الله يدخر من ذلك السلاح الذى
طعنت به الأيام مصر على أيدي الرعاة ، أقوى معين على اخراجهم منها بعد
قرن ونصف قرن • لا ليقيموا عرشهم فى اقليم آخر من هذه الدنيا •
وانما ليزول سلطانهم تماما من عالم الوجود ، كما شاء الله أن يجعل من ذلك
السلاح أقوى عامل فى بناء الامبراطورية المصرية التى امتد نورها الى
أطراف الدنيا جميعا • أثر ذلك السلاح الجديد فى تقدم الحرب ؛ فكان الراكب
يطوى به الأرض طيا سريعا ؛ حين الزحف وعند الهجوم • وينهى به
الكفاح فى أقصر وقت ممكن • ومناظر الحرب على جدران المعابد
المصرية ؛ تصور لنا هول الزحف والغارة ، وروعة الهجوم بعجلات
الحرب تكاد جياذ الخيل أن تطير بها من فوق الأرض ومن فوقها
الفوارس من نبلاء الوادى وأمراءه يتقدمهم فرعون تكاد الأرض
من تحته أن تزلزل زلزالها •

ولقد أثرت سرعة الحرب وسهولة الهجوم والزحف فى سياسة
الدنيا وفى أحوالها الاقتصادية • وكان من جراء ظهور عجلات الحرب
أن تخلف عسكر المشاة ، وأصبح للخيالة المقام الأول فى دنيا الحرب
والغارة • وتقدمت صناعة السهام • وراجت أسواق الرماة • وكثر
اقبال الأمراء والنبلاء ووجوه الأقاليم فى مصر وما جاورها من أقطار
الدنيا على ممارسة الرياضة العسكرية ، والتمرن على قيادة الخيل
وترويضها وفهم طبيعتها اقبالا عجيبا • وكانت الروح العسكرية فى مصر

قد انتعشت انتعاشاً لم تسمع به الدنيا من قبل • ونهضت مصر نهضتها الحربية والسياسية في آن واحد • وأصابها التوفيق في بناء الامبراطورية المصرية على أساس التوسع في الفتح والغارة وتأمين الحدود المصرية وضمان سلامتها ، ثم في انشاء ذلك الحلف بينها وبين أقطار الشرق اتقاء لخطر الحيثيين • وانتشرت في مصر صناعات الحرب المختلفة • وكانت منف عاصمة الديار الحربية طوال أيام الامبراطورية أقوى دعامة في هيكل الامبراطورية جميعاً • واندفع الناس من جميع الطبقات في خدمة الجيش وفي مقدمتهم أمراء البلاد ونبلاؤها وأعيانها اندفاعاً أزعج أصحاب الآداب والعلوم والفنون المختلفة • وأكثرت الحكومة من ترغيب الشعب في الخدمة العسكرية بكثرة ما أعطت البارعين منهم من منح الأرض والذهب وألقاب التشريف والبطولة • وسمت روح المصريين المعنوية سموها عجبياً • وامتلات نفوسهم بتلك الكبرياء المحبوبة التي تملأ عادة نفوس النبلاء من قواد الجيوش وأمرائها ، ويات المصريون يشعرون بأنهم سادة الدنيا وأمراؤها ، وأصبح لمصر أدب حربي رائع زاد في ثروة البلاد الأدبية •

ثم أثرت الحرب في عقيدة المصريين وثقافتهم الدينية ، فخلعوا على كثير من أرباب البلاد ألواناً عجيبة من صفات أبطال الحرب والغارة • وفي مقدمتها آمون سيد طيبة ورب أرباب الأقاليم المصرية جميعاً • كما أصبح «منتو» رب طيبة اله للحرب عند المصريين ، وكانت الدنيا قد هيأته لذلك من قبل^(١) • كذلك جعل المصريين من معبودهم القديم « ست » اله للحرب بعد ما كان من أمر مساواته بأله الساميين « بعل » • ودفعت النهضة الحربية الجديدة فراغته مصر الى الاقبال على تمجيد آلهة الحرب الاسيوية فأقبلوا على رعايتها ونقلوا عبادتها الى مصر ، وأقاموا لها دور العبادة في عواصم الوادى • وعرفت مصر من ذلك الوقت عشتارة وعناة ورشب •

أحمد بدوى

(١) أعني منذ انتصر تحت رايته ملوك الأسرة الحادية عشرة ، فأعادوا على مصر حكومتها المتحدة •